كتاب

تاريخ اللغات السامية

تأليف

جودة محمود الطحلاوى
الطالب بدار العلوم العليا

١٣٥٠ — ١٩٣٢

مطبعة الطلبة بمصر

كتاب

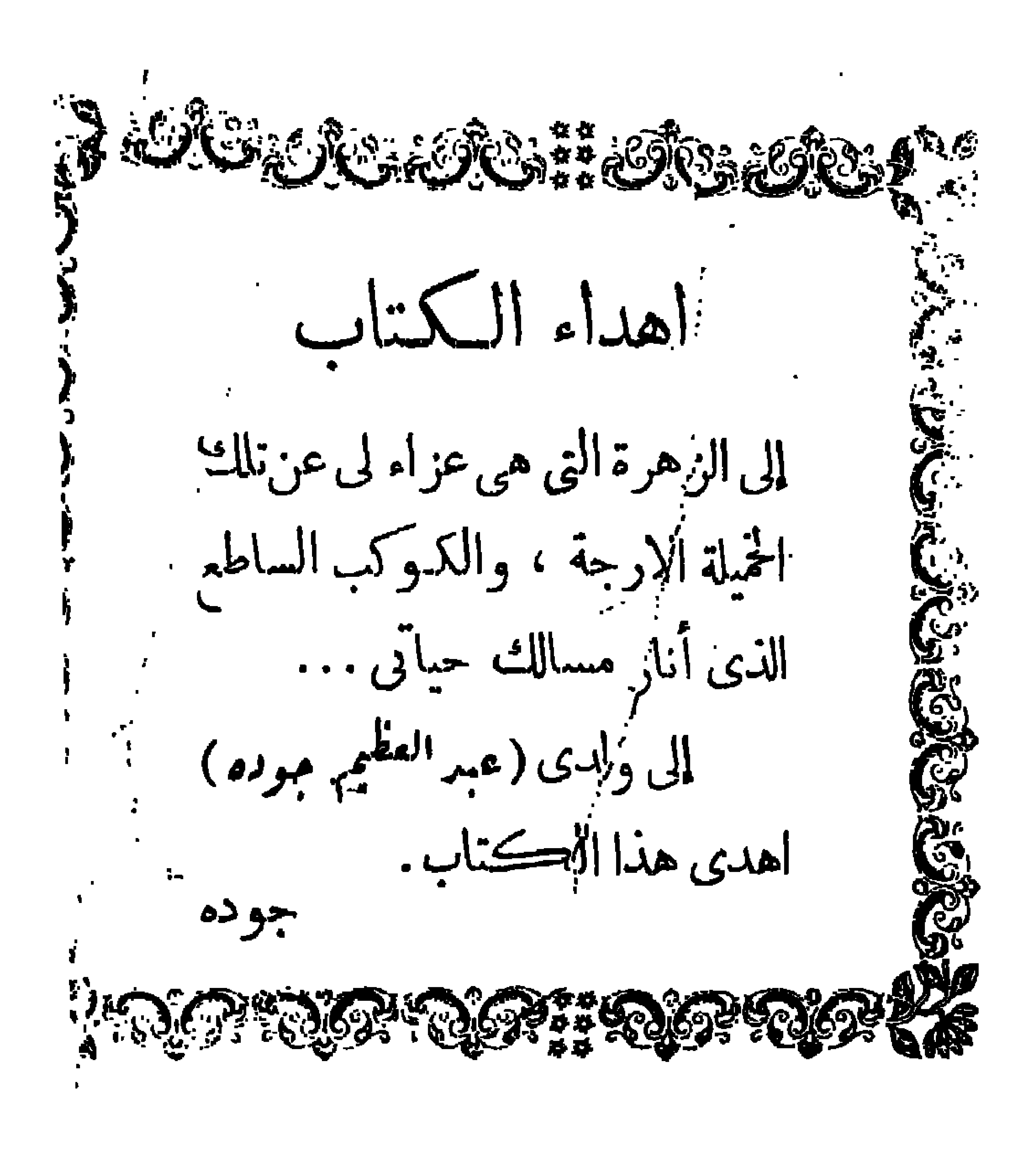
تاريخ اللغات السامية

تأليف

جودة محمود الطحلاوي
الطالب بدار العلوم العليا

١٣٥٠ — ١٩٣٢

مطبعة الطالبة بمصر



اهداء الكتاب

الى الزهرة التى هى عزاء لى عن تلك الخميلة الارجة ، والكوكب الساطع الذى أنار مسالك حياتى ...

الى والدى (عبد العظيم جوده)

اهدى هذا الكتاب .

جوده

منهج اللغات السامية

بدار العلوم

مقرر السنة الأولي :

كلمة فى علم اللغات لبيان فوائده وأقسامه : نشأة اللغات السامية. اللغة الاولي منها. المهد الاصلى للساميين. اللغة الاولى السامية. القسم الشرقى . الغربي الشمالي .الجنوبي

مقرر السنة الثانية : —

تاريخ نشأة الكتابة . الخطوط السامية ومقارنتها . الامم السامية ولغتها . تسمية أبناء سام بالسامين ولغاتهم بالسامية . المهد الاصلى . القدماء المصريون . الحاميون . الساميون والاندوجرمانيون . اللغة السامية الاولى . القسم الاشوري البابلى. الكنعانيون واللغة الكنعانية . العبرانية . الآرامية . السريانية . الفينيقية . العربية . الحبشية .

مقرر السنة الثالثة : —

الخط السريانى . تاريخ نشأة العهد القديم بالاجمال .

مقرر السنة الرابعة : —

مقارنة الخطوط . والالفاظ والقواعد والاساليب في اللغات السامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله . . . وبعد

فأتقدم أول ما أتقدم بهـذا المبحث فى تلك الناحية التى أعتقد أنها ممتعة لاتزال مهضومة الحق فى تآليفنا العربية. وقد ساءنى كما ساء كل غيور على لغته وقوميته ـ أن أرى المستشرقين يقودوننا حتى فى أمس الأشياء بنا رحما كالتاريخ الاسلامى؛ (واللغات السامية) والآداب العربية حتى أصبح منتهي علم عالمنا أن يقف علي آثار ابحاثهم ومناحى أفكارهم مما تندى له جباهنا خجلا أن كانوا هم السابقين إليها .

ولـكني لما تشرفت بالانتساب إلي (دار العلوم) كان أول ماشنف مسامعي تلك الأساليب الممتعة الهادئة التي يتحدث بها أساتذتها الذين هم خلاصة الامة ؛ والموئل الوحيد لآمالها ورقيها ؛ تلك الأحاديث التى أخشى أن أنتقصها لو حاولت وصفها والـذي أقول بحق: أنها هى الضالة المنشودة هى ما ينفع الناس وماعداها فزبد يذهب جفاء . واعترف أن أول ما أخذ على مسالك حسى هـذه الآيات السحرية الممتعة من محاضرات أستاذى الـكبير (الدكتور علي العنانى) فى تاريخ (اللغات السامية) فهمت بها وشغفت بمادتها... وأخـذت أدأب علي البحث فى بطون الأسفار ، وتلخيص

مايلقى علينا من محاضرات حتي تكونت لدى مجموعة ابحاث فى هذا السبيل تقدمت بها إلي حضرات الأساتذة ،وإخواني المخلصين فطلبوا إلى أن أنشرها فابيت الطلب شاكرا مع ماأشعر به من ضيق الوقت وقلة المراجع، وعرضتها على أستاذي الجليل (السباعى بيومي) أستاذ اللغة العربية وآدابها بالمدرسة فشملني بعطفه ، وأفسح لي من وقته مايعجز لسانى عن اداء شكره، كذلك أتقدم بالثناء لباعث النهضة (مهدى علام) استاذ التربية وعلم النفس بالمدرسة على تفضله بقراءة الكتاب كذلك استاذي (محمد عطيه الابراشى) وباقى حضرات من تفضلوا بمساعدتي فى اخراج هذا الكتاب بهذه الحلة القشيبة .

هـذا ما أردت أن أتحدث به عن الظروف التي حدت بى إلي تأليف هذا الكتاب . أما عن مادته وما شمل من ابحاث فسأفسح المجال لحضرات من تفضلوا بابداء آرائهم فيه

وبعد فسأتقدم بهذا الكتاب (الى اقراء محاولا أن يصل بحججه الى عقولهم ، ويتحدث اليهم بأسلوبه عسى أن يقنعهم فان ظفر بذلك فقد أصاب غرضه ، والا فقد أثار من الأفكار ماسوف يمحصه جدله مع نقاده . وحسبه اذن أن تنجلي الحقيقة على يديه وما ذلك بالقليل) ؟

جوده محمود الطحلاوى

كلمة الاستاذ السباعي السباعي بيومي أستاذ اللغة العربية وآدابها
(فى رسالة اللغات السامية)

« جودة محمود الطحلاوى » طالب بالسنة الثالثة « بدار العلوم » عهد إلى بعض الدرس فيها ، فلفت نظرى اليه (وغير المعتاد يلفت النظر) ـ أن كنت أجده دائما مقبلا على بحوث علمية أشبه بالكهول منها بالشبان ؛ وأن كنت أجد يده لا تكاد تخلو من كتاب غريب حتى تظفر بآخر أغرب منه ، كما كنت ألحظ عليه جملة « أن وجهته إلى جانب المعاني أميل منها إلى جانب الألفاظ . وأن همه إلي تثقيف نواحي الفكر أشد منصرفا منه إلى أدوات البيان » . وبينا أناشد يد الاغتباط في نفسى بهذه الظاهرة الطيبة فيه وفى نفر ليس بالقليل من اخوانه أخرجوا ثمرات ينشرح لها صدر « دار العلوم » ومن تهمهم « دار العلوم » ـ إذا بهذا « الطالب » يطلب إلى أن أراجع قبيل الطبع رسالة وضعها في « اللغات السامية » وهى التي تقول فيها كلمة الآن :

تابعت تلك الرسالة متابعة طاولني فيها الزمن ما طال الطبع فرأيت فصولا قد فصلت عن تنسيق فكري . وترتيب منطقي يتطلب سابقها لاحقها . ويأخذ الكلام فيها بعضه بحجز بعض . ثم هى بعد من الطرافة والجدة بحيث تشعر القارىء أن واضعها جري فى بحث هذا الموضوع شوطا بعيدا ، وأعد عدة الكتابة فيه قبل الاقدام

عليه فأشبه فى هذا أن يكون « عالما منتهيا لا طالبا مبتدئا » يلقي ما يلقى بعد استفاضة بحث ، وعظيم اقتناع معتقدا أنه قد أصاب الحقيقة ، أو عبد الطريق لمن تقع على يديه تلك الاصابة بعد وحسب كل باحث أن يظفر فيما يتصدى له بأقل النصيبين .

هذه كلمتنا ولعل خير ما ننبيها به أن ننصرف عن الرسالة الى صاحبها فنوصيه خيرا بهذا «الاستعداد الوليد فيه» طالبين اليه أن يتعهده بالرعاية ويستديم له أعلا حظه حتى يسير قدما فى طريقه ، ويصل غير بطيء إلى غايته فيخرج لنا البحوث تلو البحوث متدرجا فى ذلك إلي ذورة الكمال «وليس للكمال غاية تنال» إنما الغاية التى نرجوها له أن يكون كما قد قيل :

رأيتك أمس خير بنى لؤى   وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفا   كذاك تزيد سادة عبد شمس

السباعي السباعي بيومى
مدرس اللغة العربية وآدابها بدار العلوم

تكرم حضرات الاساتذة «الدكتور على العناني» أستاذ الفلسفة واللغات السامية ، والاستاذ «مهدى علام» استاذ التربية، وعلم النفس والاستاذ «محمد عطيه الابراشي» استاذ اللغة السريانية، وعلوم التربية فقرؤا تلك الرسالة ، وبعثوا إلي بكلمات اجتزيء منها مايخص الكتاب لأني لا أود أن أشغل القراء بخاصة نفسي :

* * *

... وهذه الرسالة مجهود عظيم قام به الطالب « جوده محمود الطحلاوى » فى موضوع «اللغات السامية» وهو عمل جليل يدل على فضل هذا الكاتب ، وعنايته بدرس هذه المادة في « دار العلوم » وجدير أن ينتفع به طلبة المدرسة ، وأن يحرك من هممهم إلى العناية بهذه المادة ، والتدوين فيها تلخيصا مما يلقى عليهم فى درسها .

على العناني

مدرس اللغات السامية بالمدرسة

* * *

... ويسرني أن أري هذا النشاط ، والجد من الطالب (جوده محمود الطحلاوى) فى بحثه فى (اللغات السامية) وأرجو له كل توفيق ونجاح .

محمد عطيه الابراشي

أستاذ اللغة السريانية

. . . أما هذا الكتاب فسيقدم نفسه الى القراء محاولا أن يصل بحججه الي عقولهم ، وسيتحدث اليهم بأسلوبه عسى أن يقنعهم . فان هو ظفر بذلك فقد أصاب غرضه . والا فقد أثار من الافكار ماسوف يمحصه جدله مع نقاده . وحسبه اذن أن تنجلي الحقيقة على يديه وما ذلك بالقليل ، وأما مؤلفه فأشعر برغبتى فى تقديمه الى قراء كتابه فانه على الرغم من اعتقادي بأنه (سيصبح فى القريب شخصا معروفا لذوى العلم والأدب فى مصر) - لن يكره أن أقول عنه كلمة قصيرة فان (كتابه لا يمثل الا بعض نواحي فضله)

عرفت (المؤلف) وان فى (دار العلوم) اليوم لنهضة علمية تترجم عما فيها من حياة واضطلاع بأمانة العلم والأدب ، وأشهد انه ليملأ قلبي سرورا أن أرى بين طلبتى عددا ليس بالقليل قد برهنوا على (شخصيتهم) العلمية والادبية ، بما كتبوا من رسائل ، وألقوا من محاضرات ، وقرضوا من شعر ، وان (جوده الطحلاوي) ليحتل منهم (الصف الاول) وخير ما أعجبنى (به) فيه وفيهم استقلالهم الفكري غير الجامح ؛ وحريتهم فى الرأى غير المضطربة ولا الملوثة

ان مؤلف (هذا الكتاب) مغرم بالبحث ، دائب على الاطلاع ، وهاتان صفتان ان هما دلتا على شيء فى حياة (الطالب النابه) فانهما تدلان على انه (يحسن الانتفاع بما يلقى اليه من العلوم ، وعلى أنه فى سبيله الى المجد العلمي)

على أن (الجوده الطحلاوى) فضلا آخر قلما وجد فى غيره من طلبة المعهد الحديث وهو (تضلعه من العلوم الشرعية الاسلامية تضلعا يكسبه كل فخر ويطمئن قلوبنا على مصيره)

. . . . وبعد فلولا أنى أخشى اغتصاب الفضل - والمؤلف لم يتتلمذ على الا قرابة خمسة أشهر - لتمثلت بالحديث الشريف (لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها)

مهدي أستاذ التربية، وعلم النفس

كلمة لطالب النابه «على فريج افندى»

عرفت «جوده» فعرفت الأخلاص والوفاء، والمروءة والنجدة، والهدوء والرزانة، والذكاء المشتعل، والقريحة النقادة، والجد والاجتهاد، وعشق الحقيقة والاستهامة بالبحث لا يشعر بما يمسه من نصب ولا بما يناله من لغوب

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

عرفت النفس العالية التي تتخذ رقيتها الى سماء آمالها كدها وعملها لا الملق والرياء، والشخص العصامي الذي يبتنى صرح عظمته على أساس كفاءته بعزمه وحزمه وسهره وتعبه لا على أساس الضحايا بالتزلف والتقرب الى المتبوعين والرؤساء، والذي يؤثر العزلة ويفر الى الكتب ليتحدث الي صفوة العقول فيما يغذى به عواطفه ولبه وفيما يزيده بصرا بالكون وايمانا بالله . . . . أجل

يؤثر العزلة ويراها جبلا عاليا تريه قمته الناس فى سواء الشقاء فتثور فى نفسه عاطفة لا يمكنك أن تصفها ، وكل ما تستطيع أن تقوله عنها « انها مزيج من الرحمة والنقمة، والحنان والقسوة، والحب والبغض » ذلك بأن منظر شقائهم يثير عطفه ، واعتقاده بأن كلا منهم قمن أن يقال له « يداك أوكتا وفوك نفخ » يجعله يستريح ويقول هذا هو العدل جزاء وفاقا

ذلك هو (جودة) ، وتلك هي نفسه ، (ولا ينبئك مثل خبير)

ولشد ما كنت أخشى أن تدفن تلك العبقرية في ضلال المجتمع، ويقبر ذلك الذكاء فى جوف التقاليد القاسية ، وتذهب بأبحاث تلك القريحة عواصف العادات المرذولة ، ولكني كنت أقول اذا رجعت الى نفسي (ان للعقول الجبارة صوتا هادئا، وهو على هدوئه ملء المسامع ، ومناجاة ساكنة ، وهي على سكونها ينصات اليها كل فؤاد ويصغى كل قلب، فجوده (صديقي) وان كان منعزلا لا يتحدث الا الي الاسمار ، لا بد أن يجلس الى كل شخص وأن يحادث كل نفس ، وأن يرى الناس نور عبقريته وقد شع من بين سطور أبحاث ممتعة شيقة مفيدة يقدمها اليهم .

ثم كنت أفكر فيما عسى أن تقدمه للعالم هذه النفس الشابة في آمالها وأعمالها الحزمة فى جلالها ووقارها ، وجال بخاطرى كل موضوع من الموضوعات التي قصرنا عليها والتي لطالب الأدب

ولقلم طالب الأدب فيها مراغم كثيرة وسعة مثل (ترجمة شاعر ـ حكم على شعر ـ وصف لحال اللغة فى عصر من عصورها ـ قصص تاريخى) ورحت متلهفا انتظر بطرب نازع ، وصبر فارغ ، وشوق لجوج قراءة مبحث لهذا القلم في موضوع من هذه الموضوعات ، فما أدهشني الا وأنا أقرأ له كتابا ضافيا في (اللغات السامية) . . .

اللغات السامية ! ! موضوع لنا به صلة ولنا به علاقة ولكن لا تتعديان حدود المعرفة العامة ، واذا سألتنا عن مرجع لا نكاد نهتدى اليه ، ولكن زالت الدهشة حينما تذكرت أن النفس المولعة بالعلم تطير فى جو فسيح من البحث وراء نهمها وجشعها ـ وأحبب بها نهما وجشعا ـ ولا تزال تتلمس الحقيقة فى بطون الأسفار مقررة عليها أم غير مقررة ، قريب متناولها أم بعيد .

وكأني بزميلي النابه قد رأى اخوانه يسيرون على غير هدي فى هذا الموضوع حتى اذا أناخ عليهم الامتحان النهائى بكلكله وقفوا الموقف المشرف فى كل المواد الا فى هذه المادة (اللغات السامية) فان عرق الخجل فى موقفها تندى به جباههم لا يكادون يحيرون جوابا عن سؤال من الموجه اليهم من (القس) ذلك بأن ليس لها مرجع يستذكرونها فيه . . . كأنى به رأهم كذلك فرحمة بهم وبنفسه جاب الأسفار ونقب فى الكتب وأعمل ذكاءه النادر وقريحته الناقدة فى المطالعة والبحث ثم ألف بين ما اختار وربط بين ما جمع وضم الى ذلك

ماوعى من محاضرات أستاذنا العلامة (الدكتور العناني)، بقلم تستجيب له الفصاحة اذا دعاها، وتنصات اذا ناداها فكان كتاب (اللغات السامية) الذى لم يشأ أن يكون له فيه فضيلة الجمع والاختيار والأسلوب فحسب بل أظهر فيه عقليته الجبارة بآراء صائبة وحجج قوية وأدلة واضحة أخذت بيد أقوال هى الحق ولكنها لم تجد من نصير .

أجل أيها الزميل ألفت هذا الكتاب رأفة باخوانك الضالين فى هذا الموضوع وبحثت هذه الأبحاث الممتعة رحمة بهم وبمن يتعشق العلم ويولع بالمعرفة، ويريد أن يكون على بينة من اللغة الشريفة وشقيقاتها، وانه لجد ممتع، وانه لجد مفيد، لا يزال بالقاريء يخاطب عقله، ويناجي لبه سائرا به فى طريق معبد . وحجة واضحة حتى يفهم الفهم الصحيح ويزول من نفسه ما يختلج من شك أو يتردد من ريب .

فالخير جزاؤك من الله أيها الزميل النبيه . والشكر من اخوانك بما قدمت اليهم من يد خالدة، والى الأمام فبسمات التشجيع (أيها الشاب) من أستاذيك تنير لك السبيل

علي فريج مهنا

جاءنا من الشاعر النابه (فريد افندى أبي العطا) القصيدة الآتية

كذا فليكن سعي الشبيبة للمجد بحزم وعزم لا يفل مع الكد
ونفس ترى الدنيا بوارق خلبا بعين بصير لا يميل مع القصد
تهيم بمكنون السطور وتتقي غواية عشاق الضلالة بالرشد
اذا نظرت حوراء قالت جميلة وأجمل منها السعي فى سبل المجد
فلم يثنها داعي الشباب عن الهوى ولا صارم الالحاظ عن مطلب الخلد
وكيف وتلك النفس دين وحكمة ونبل وإخلاص لخالقها الفرد
فلا عجب أن تكتب الخلد أسطرا وترفع بنيان الفخار علي عمد
بربك يا طلق اللسان كم اشتكت جفونك للظلماء من ألم السهد

***

وكم ساعة ألهتك عن نيل حكمة وإن كان هذا اللهو خلوا من النقد
وكم حجة أفنيت فى طلب العلا تواصى السرى بالسير فى كرم النجد
وكيف سلبت الليث عزما وهيبة فهابك فى الآجام طاغية الاسد
وكيف يرق الطبع حتي كأنه نسيم سرى فوق الرياض على الورد
وكم مجلس للعلم كنت فريده وكنت به فى الفضل واسطة العقد
هبات من الرحمن كانت ولم تزل فضائل تسمو بالرجال الي الحمد
وما كان مدحى عن أخاء أصوغه فيحسبه الجهال من سرف الود
ولكنه محض الوفاء وربما جنحت بنفس فى الثناء إلى الصد

محمد فريد أبو العطا

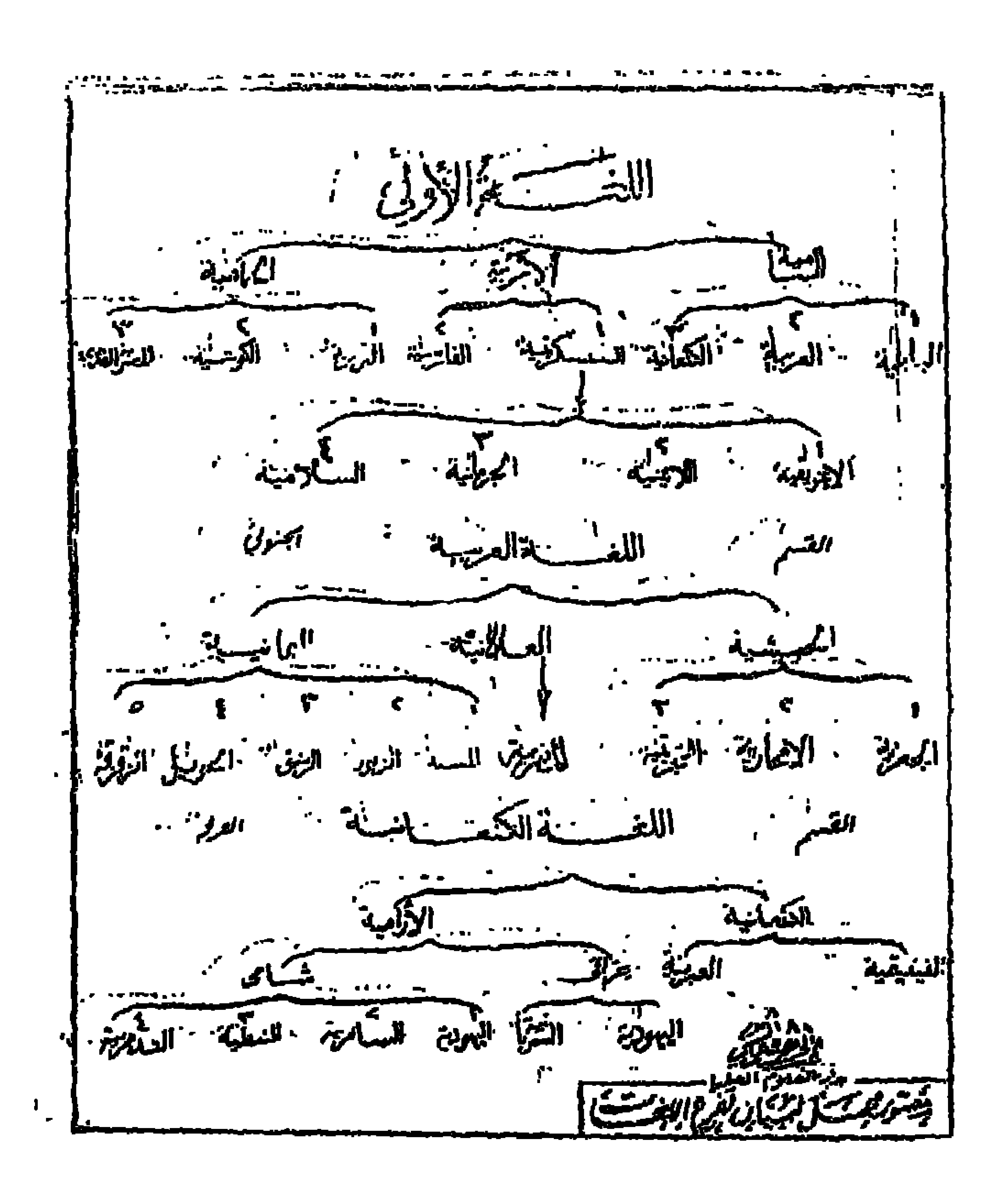
احقاق وتقدير

صديقى دأبت ونعم الدأب قم اليوم فاقطف ثمار التعب
طلعت علينا بسفر جليل أزال سناه ظلام الريب
صغير ولكن يفيدك علماً دقيقاً يفوت كبار الكتب
جهلنا الأوالى ونحن بنوهم ولم ندر شعباً له ننتسب
فلما نسينا الاصول اختلفنا ونحن ولا ريب نسل العرب
كفيت العقول مئونة بحث يطول وقدلا يفى بالطلب
وأرسلت فينا وجيزا مفيدا فلا بالطويل ولا المقتضب
وصورت فيه حياة أناس أغار عليهم توالى الحقب
وبينت فيه لغات أبيدت ومن أى أصل وكيف انشعب؟

أ « جوذة » هذى طليعة غيث سيروى العقول ويمحو السغب
وتلك عصارة فكر طليق تخطى قشورا وجاء بلب
بحوث حجبن عن العقل حينا إلى أن أتيت كشفت الحجب
لئن يحسدوك فليس عجيباً ولكن تغاضيك كل العجب
صديقى عرفناك فاكتب وألف فانا عطاش لهذا الأدب
وابرز خفايا العلوم فكل بما قد كتبت شغوف طرب
كتابك فينا نراه فهدي جزيل الثناء إلي من كتب

طلبه محمد عبده ، دار العلوم العليا

الفهرست



السامية
الآرية
الحامية
البابلية
العربية
الكنعانية
السنسكريتية
الفارسية
الإغريقية
اللاتينية
الجرمانية
السلافية
القسم
اللغة العربية
الجنوبي
الحبشية
اليمانية
القسم
اللغة الكنعانية
الكنعانية
الآرامية
الفينيقية
العبرية
عراقي
شامي
اليهودية
السامرية
النبطية
التدمرية



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قد أتى على الانسان حين من الدهر كانت معارفه العقلية كحاجاته المادية كلتاهما محصورة لا تتعدى النظرات السطحية في جمال الطبيعة وتنسيق الكون وإشباع النفس بما لذوطاب من نهم الحواس ونزوعها للخير العاجل كما نراه ونلمسه فى حياة الطفولة التي هي (المرحلة الطبيعية الأولى للانسانية) فكانت تلكم النظرات أقرب الى البساطة والسذاجة مما نتصوره نحن من مطامع النفس العقلية وإرواء غلتها بمختلف العلوم والمعارف

ولقد كان لفظ العالم فى تلكم العصور الأولى من حياة الانسانية يطلق على ذلك الرجل الذي يعلم ما تعارف عليه أهل عصره من الضرورى لحفظ الحياة فلا يتجاوز فى المعلومات العقلية ما هداهم اليه مرور الزمن واستعدادهم الفطرى بحكم كونهم مفكرين بطبيعتهم .

هذا إلى بساطة الموضوعات وحصرها في ناحية هي إلى المحسوس المشاهد أقرب منها إلى المعنوي المعقول .

ثم درجوا على ذلك وكل معلوماتهم كلمات يلقيها الرجل على أصحابه في الجلسة والجلستين. فلم تك تلك المعارف علوما لها قواعدها ونظمها، وإنما هي متفرقات من شذرات النظر والالهام، لم يعن بتدوينها من الأمم إلا من كانت أرسخ قدما في الحضارة كالمصريين والبابليين وغيرهما من أمم الشرق، وما زالوا على هذه الحال ينتهجون سنة من تقدمهم حتى ظهرت الحركة اليونانية في العلوم والمعارف حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، فهي أول أمة عنيت بضبط المعلومات وحصر طوائف منها تحت علم خاص له قوانينه وحدوده ثم استفاضوا في هذه المباحث الجليلة، ورائدهم الفكر الحر من أغلال الاساطير والأوهام حتى كونوا أثراً خالداً للانسانية في المعارف العامة والآداب، أصبح فيما بعد المنبع الفياض والمنهل العذب الذى رويت منه جميع الأمم ، والقبس الوضاء الذى اهتدت بهديه كبار الحضارات الغابرة والحاضرة

ومع تنوع معارفهم فانك تستطيع بعد الدراسة الدقيقة أن تجملها في مواضع أربعة عامة هي (١) الفلسفة (٢) الطب (٣) التشريع (٤) اللاهوت . ثم كان العالم منهم لا يعجزه أن يدركها جميعها ويحيط علما بدقائقها وأسرارها فكنت تجد الحكيم الفيلسوف، طبيبا نطاسيا وفقيها طبنا، وحبرا ربانيا ، كما تلمح ذلك واضحا في أرسطو وكتبه التي هي دائرة معارف عامة للعهد القديم من الانسانية

وبينا الأمة اليونانية وادعة في نعيمها الخيالي اللذيذ، اذا بها ترى شبح الرومان الوحشي يصبحهم في خشونة لباسه، وجفاف معاملته، فقد كان يحتقرهم ويرميهم بأنهم قوم خائلون واهمون، ثم جعل يضيق عليهم الحرية الفكرية حتى فروا يهيمون على وجوههم في فيافي المعمور، وفي الأرض منأي للكريم عن الاذى * وفيها لمن خاف القلى متحول

فانفصل كثير من علمائهم عن اليونان ونزلوا فى بلاد آرام على سواحل الفرات الشمالية حيث (الرها - الرقة) وحران وغيرها من مراكز العلم والأدب فامتزج بهم كثير من الآراميين وأخذوا عنهم علومهم ومعارفهم فكانوا بذلك ممهدين لعقول الآراميين ومفتقين لأكمامها الغضة الزاهرة حتى كانت على أتم الاستعداد لتقبل المسيحية حيث ظهرت فى هذه البلاد فوجدت فيها مرتعا خصبا أزهرت فيه وأورقت وآتت أكلها كل حين باذن ربها وعندما اعتنقوا المسيحية سموا أنفسهم «سريانيين» أي آراميين مسيحيين «كما سنذكر ذلك فى تاريخ الأمة السريانية» فوقف السريان حياتهم على البحث عن هذه الكنوز الثمينة التى طال عليها الامد فى رقدتها وملتها المضاجع، فنقلوا كثيرا من العلوم الفلسفية والمنطقية، وساعدهم على أداء هذه الرسالة الشاقة الجليلة موقع بلادهم الجغرافى بين أكبر قوتين عرفهما التاريخ القديم، وهما القوة الفارسية ذات الصبغة الشرقية شرقا، والقوة اليونانية الآرية غربا، فضلا عما كان موجودا إذ ذاك

من الانقسام الدينى المذهبي بين الحواريين من رهبان الكنيسة اليعقوبية غربا والكنيسة النسطورية شرقا وكانت اللغة السريانية هي لغة الكتابة والتأليف بين جميع الطوائف المسيحية التى انقسمت على أنفسها فى تحديد طبيعة الاله والمسيح والتفرقة بين الارادة والفعل الألهيين وكان المذهب السائد إذ ذاك هو مذهب النسطوريين الذى ينص على التفرقة التامة بين طبيعة الاله والمسيح والتفرقة بين الارادة والفعل وهو المذهب الذي ساد بين المسلمين فى عصور الترجمة

على أن الذى يعنينا من كل ذلك هو أنهم قد عنوا بناحيتين من نواحى التفكير اليونانى الأولى الأخلاق والتصوف وكانت وجهتهم فيها الفيثاغورسية، والثانية المنطق والعلوم ووجهتهم فيها كتب أرسطو، والأفلاطونية الحديثة ، وعلى الجملة كل ما لم يمس الدين والعقيدة ويصادمهما، أما الالهيات فكانت تترجم وتعدل على حسب ما يتفق والمسيحية الغضة الناضرة حتى إنك لتعجب كل العجب حيث يصورون لك أفلاطون الالهي براهب شرقى كرس حياته منعزلا عن الناس ليبحث فى طبائع الخير والشر والحقيقة الالهية . . .، ولهذه النظرية قيمتها وأثرها فى العلوم التي ترجمت الي المسلمين فيما بعد على يد هؤلاء السريان من العلماء ومن على شاكلتهم

فلما امتزج الروح اليوناني بالروح الشرقى الذي بعثه الاسلام فى نفوس العرب ، أنتجا نظما علمية دقيقة « بما لليونان من بحث دقيق ونظم

منطقية مهذبة، وما للشرق من إلهام فطرى وطبع خصب وميل الى الغيب وما وراء المادة » فحل ذلك من عقدة ألسنتهم فى المعقولات الدقيقة ، ووضعوا نظريات ، ورتبوا أصولها وقواعدها، وما كانوا ليستطيعوا ذلك لولا مساعدة العلم اليوناني

فى وسط هذه المعارك الفكرية قد تمخضت الحياة العلمية بعد طول جهادها عن قادة الفكر الواضح، وكواكب الرأى الساطع الذي تقشعت أمامها سحب الجهل والباطل بعد أن خيم علي العقول قرونا عدة، وذلك كالفارابي، والرئيس ابن سينا، وحجة الاسلام الغزالي، فى المشرق، وكابن باجة وابن طفيل وخاتمة المحققين الحكماء الامام ابن رشد في المغرب

وهذا هوالعصر الذهبي للمسلمين الذى كانت تتأجج فيه نور الحضارة الاسلامية وتستفيض نورا يشرق علي ما جاورها من البلدان فى حين أن أوربا كانت إذ ذاك أسيرة الأوهام والوحشية مكبلة بأصفاد الكنيسة والملوك المستبدين تتخبط فى دياجير الجهالة والظلمة ، لم يكن لها متنفس تتنفس منه نسيم الحرية فى الآراء المعتقدات، وأنى لهم ذلك والكنيسة واقفة لهم بالمرصاد ، وسيف الظلم مصلت علي رءوسهم ينتظر فيهم كلمة القضاء ؟ !

فى تلكم الآونة كانت أسبانيا تحت حكم العرب « بل ملسكا نخالصالهم » فتربى فى مدارس العرب وكلياتهم بها عدد من الاوربيين

تنسموا أريج الحرية من زهرة الحضارة الاسلامية الأرجة فانسلوا اليها من كل حدب رجالا وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق، حتى أذن مؤذن منهم بالعلم والآداب فما كانوا إلا كنار كامنة فى حجرها ما إن قدح حتي أوري واستطار شرره فأحرق الكنائس وقيودها، والمعابد وتماثيلها، وكونوا لهم على أنقاضها بناء ثابت الأساس، موطد الدعائم علي ما عرفوه عن العرب من حرية الآراء والأبحاث وكان ذلك حوالي القرن الرابع عشر الميلادى

ولقد دعاهم شغفهم بالبحث والتنقيب الى أن يغترفوا العلوم من مناهلها الأصلية، فدرسوا الكتب اليونانية القديمة، مستعينين علي ذلك بشروح العرب، وخاصة ملخصات الشرح الصغير لابن رشد علي كتب أرسطو وما زالوا يستزيدون، حتى بدأت النهضة العلميه الاوربية حوالى القرن السادس عشر الميلاد فدونت العلوم وأفرد كل مبحث بعلم خاص وصفيت شعب المعارف المتداخلة من قديم الزمان فقسموا العلوم تقسيمات دقيقه، يبحث فى كل فرع منها على حدته كأنه وحدة مستقلة، وأشهر العلماء الذين قسموا المعارف ورتبوها وميزوا بعضها عن بعض (فرنسيس بيكون) وأضرابه

كان من هذه العلوم التى أصبحت ذات أهميه عظيمه فى التاريخ الحديث «علم اللغات» بل هو أساس المباحث الدقيقة ولا سيما فى هذا العصر الذى أصبح فيه العقل ولوعا بمعرفه أسرار الكون من مبدئه الي منتهاه ! !

الباب الاول

في علم اللغات

الفصل الاول

فى معرفته وموضوعه

يسمي هذا العلم بالفرنسية « فيلولوجى » وباللاتينية « فيلولوجيا » وهو مركب من كلمتين « فيلوس » محب و « لوجوس » كلام فحذفت « الواو والسين » ثم ركبت الكلمتان ثم أتوا بواو في « فيلو » فصارت « فيلولوج » محب اللغات ثم أرادوا العلم ذاته فزادوا « ياء » في الكلمة فصارت « فيلولوجيا » علم اللغات

يبحث هذا العلم فى اللغات الانسانية التي كان لها كيان مستقل وشخصية بارزة فى الوجود، سواء أبادت هذه اللغات أم تركت نفائس تذكرنا بآلها، ومدونات تقفنا علي أحوالهم وأخبارهم: فيبحث عن لغة الانسان الأول وهل هي واحدة اومتعددة ؟ وذلك راجع بالطبع الي اختلاف أنظارهم نحو الكون العام ونشوئه على هذه البسيطة فمن يرى أن الأجناس البشرية ترجع فى تكونها ووجودها الى نوع واحد هو الانسان الأول لامندوحة لديه من أن يعترف بوحدة اللغة الأولى للانسان ومن يرى أنها متعددة بتعدد أصولها ،وصل بذلك الى تعدد اللغات الأولى للانسانيه، ثم يبحث في تكون اللغة الاولي للمجموعات

المختلفة ،وهل هى الهامية من الله وتوفيقه أم أنها طبيعية وضعية ككل الكائنات الحية التى تسير على قانون النشوء والارتقاء ؟ ثم يبحث فى النواميس والكائنات الطبيعية التى درجت عليها اللغات حتى أصبحت على هذا الرشد المكين لها

ثم يبحث عن اللغات القديمة التي كان يتفاهم بها أهل العصور المظلمة وأوائل التاريخ لينقب فى كنوزهم الدفينة وآثارها الخالدة ليبني بذلك لبنة متينة فى أساس العلم الدقيق الذى ترومه الانسانية لان المرء حوادث متكررة متحدة وما أشبه الحاضر بالماضى !

ثم يبحث عن تدرج الخطوط ومناهج وضعها التي كانت النور الربانى الذي أوضح للانسان الاول طريقة محمودة فى سبيل تخليد ذكراه فنشأ عن ذلك وجود التاريخ الدقيق،وفجر الانسانية الذى بدد أمامه جيوش الظلام الحالكة،وغرس بذور المدنيات والحضارات المتنوعة وجعلها فى مستودع وقرار مكين

ثم يبحث فى كل لغة من هاتيكم اللغات المختلفة بحثا دقيقا،ويستخرج منها أحوالها، ومعارفها،وكنوزها والاحوال الطارئة عليها فى أطوار لغتها حتى أصبحت إلى ما هى عليه إن كانت حية ترزق

ثم يبحث عن الخصائص العامة بين اللغات ويوازن بين آثار كل منها ليضيف إلى العلم معرفة جديدة صحيحة .

كل هذه المباحث وأشباهها يعنى بها علم اللغات

وأما الفوائد الجليلة التي تعود على العلوم والمعارف والحضارات المختلفة من معرفة علم اللغات والبحث فى موضوعاته فتتلخص فيما يأتي من بناء التاريخ الدقيق علي آثار صالحة ومعرفة صحيحة ونبذ الخرافات والاساطير القديمة

فضلا عن أنه مبحث لذيذ شهي لدى النفوس المتعطشة إلى المعارف حيث يذكر تاريخ الكلمة ومنشأها والاطوار التي مرت عليها والمعاني المختلفة التي تواردت عليها فى عصورها المتداولة حتى وصلت إلي ماهي عليه، وتلك ميزة ان نحن حاولنا بيان فضائلها فكأنما نشك فى شيء هو ألزم بنا من حياتنا وأرواحنا

وإذ قد عرضنا لذكر التاريخ فيجمل بنا أن نذكر كلمة عن تقسيم العصور الانسانية ومبدأ التاريخ ودرجاته

الفصل الثانى

تقسيم العصور الانسانية

للعلماء فى تقسيم التاريخ القديم مذاهب متعددة فمنهم من يقسمه باعتبار الحياة الاجتماعية للامم المختلفة، وما كانوا يقومون به من حاجاتهم المتنوعه، فيبحثون عن ذلك فى طبقات الارض وأعمارها من عصور جليدية و حديدية . . وهم الجيلوجيون . . أما علماء اللغات فيقسمون العصور التي مرت علي الانسانية الي ما يأتى : —

(ا) عصور مظلمة

وهذه لاتدخل تحت التاريخ ولا العلم الدقيقين لأنه لم تكن هناك آثار تدل علي مبلغ حضارة هؤلاء الأقوام، فلا يستطيع التاريخ أن يدرك أكثر من وجودهم فى بقاع معينة من سطح الأرض، أما لغاتهم وعلومهم وحضاراتهم ومدنياتهم، فلاسبيل إلي معرفتها، اللهم إلا لمعاً قليلة لاتروى غلة، ولا تبرد صدى، قد تركها الانسان فى بدء التاريخ عن هؤلاء الأقوام، وهى إلي الرواية والأقاصيص الخرافية أقرب منها إلى بتاريخ الموثوق به، كما دون البابليون الآشوريون عن الصومريين سكان اللاد العراق قبل نزول الساميين اليها .وكما فعل المصريون القدماء عن سكان وادي النيل من الحاميين الأقدمين

(ب) عصر فجر الانسانية

وهو ذاكم العصر الذي ولد فيه التاريخ بعد أن طال به المكث وهو فى جوف الزمن تغمره الظلمات وتغشاه الحيرة والاضطراب

هو العصر الذي بدأ الانسان يشعر فيه بوجوده كائنا له قدرة وإرادة مستقلة ، وفكر هداه إلى أن يتحرر من قيود الأوهام، ويسخر الطبيعة بجميع مظاهرها لخيره وإسعاده، فاستخدم مواهبه فيما عاد عليه وعلى الانسانية بالمنافع الخالدة، وكان قبلا يعكف بها على تملق الآلهة والتزلف إلي القوى الطبيعية.

فبدأ يدون أعماله ومعارفه ونظم حياته وعلاقاته المتنوعة نحو الآلهة والناس ومن هذا العصر يبدأ علم اللغات ببحثه والتنقيب عن آثاره والموازنة بينها ليستنير فى بحثه وليقف على العلم والتاريخ الصحيحين من منابعهما الأصلية ، ولنزيد في رفاهية الحياة بما يضيف اليها من الحقائق العلميه والتاريخية التى تساعد الانسان علي ما يصبو اليه من كمال ، ثم عصر المدنية بعد ذلك ، وهو عصر الممالك القديمة ذوات الحضارات المختلفة . ثم عصر الانسانية العام ولما تصل إليه الانسانية بعد

الفصل الثالث

درجات التاريخ

يعني المؤرخون بتقسيم التاريخ العام إلى درجات علي حسب القوة والضعف فى سبيل البحث والاستدلال ، وذلك أنهم رأوا أن التاريخ من عهد فجر الانسانية إلي حوالي القرن السابع عشر لا ينفك عن إحدى اثنتين : إما نقوش تدون على الآثار التي تركها الأقدمون تبصرة وذكرى للأجيال القادمة ، وإما روايات وأخبار تنقل بالأفواه أو تدون فى الكتب وما اليها وعلي هذا فالتاريخ قسمان :

(ا) روائى أو قصصى

وله جملة مصادر يستفيض منها ، فمن منابعه كتب الوثنية القديمة وما دونوه من خرافاتهم وأساطيرهم ، ومشاهداتهم للطبيعة ، وتفسيراتهم

المختلفة للكون وحقائقه ككتب الفيدا الهندية ،وهي أربعة كتب؛ وكالالياذةوالاوديسياليونان . وكالمشنه والجمرة والتلمود فياليهود ·
ومنها الكتب السماوية كالتوراة والانجيل . . . عليإعتبارها كتابا تاريخيا لاهوتيا تذكر فيه المسائل التاريخية والمشاكل الاجتماعية فى نظام الكون ونشوء الجماعات . ومنها الرحلاتوسماع الروايات من أفواه الناس كما فعل هيردوت حينما زار بلاد مصر سنة ٤٥٠ ق · م فانه نزل الى طيبة ماراً بجهات مختلفة من نواحي مصر

وكلما نزل قرية تعرف إلى أهلها وأخذعنهم كثيرا من معلوماتهم وآثارهم ثم دون كل ذلك فضلا عما شاهده واختبره بنفسه كوصف بعض الجهات التي نزل فيها

وكما فعل ثيوفراستس سنة ٢٨٠ ـ ق . م حيث وصف جنوب بلاد العرب كاليمن وحضر موت وصفا مسهبا لجميع تفاصيل الحياة الطبيعية والاجتماعية هناك فى أسلوب قصصى خلاب

ورأي علماء اللغات في ذلك القسم بجميع أنواعه من التاريخ هو أنهم يقفون منه علي الحياد فلا يحكمون بنفى أو إثبات على أية مسألةالا إذا ظهر قطعيا ماينافى ذلك؛ ومن هنا ندرك الجهل الفاحش الذى تورط فيه بعض علماء هذا العصر حيث تعرض لنفى أشياء من هذا القبيل بحجة أنها لم تثبت من طريق الأثر العلمى الدقيق . وهو كما ترى جهل وحماقة بقواعد العلم والتاريخ

(ب) تاريخ دقيق موثوق به

وهو ما وجدوه بالتعلم والمشاهدة من آثار أمة من الأمم بعد تعلم لغتها والوقوف على أسرارها ومطالعة آثارها والموازنة بينها ، ومن هنا نعلم أهمية علم اللغات ؛ وكناه فائدة أنه السبيل القويمة لترقية النقد العلمي ، والذوق الفني المكتسب من خصائص اللغات

وحسبك مقنعا بفائدة علم اللغات أن تتدبر المثال الآتي :

مسألة طالما أرغى لها العالم الأسلامي وأزبد ، وقامت في سبيلة عواصف من جيوش الالحاد المنكرة ، التي تأبى إلا أن تعترض السيل إذا هدر ، أو تطفيء نور الله وترد عليه القدر ! هذه المسألة هي تحريف التوراة وتبديل كلها عن مواضعه ، والجاهل بلغه الاسرائيلين يعتمد في إثبات ذلك على أن محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يرد ذكره في التواراه الموجودة مع أن القرآن صرح أنهم يجيدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل . . .

ولكن العلماء بلغة اليهود قد استراحوا واطمأنوا إلى ما أنزل الله ؛ حيث وقفوا على أسرار تؤيد دعواهم ، ولا يجد المكابر محيصا عن الاذعان لها ؛ وذلك أنهم عرفوا خصائص اللسانين في عصريهما المختلفين ، لسان التوراة ، ولسان موسى عليه السلام ، الذي كان شائعا في عهده ، فأثبتوا بالأدلة التاريخية اللغوية أن التوراة هذه دونت بعد عصر موسى عليه السلام بما لا يقل عن عشرة قرون ، أو في غضون ذلك

كنت أود أن أتبسط فى هذا البحث، وأثبت المواضع التى ورد فيها ذكر محمد صلي الله عليه وسلم من التوراة، لولا أنى رأيت أن لذلك محلا هو أليق به عند درسنا لغة الاسرائيلين ليكون ذلك أجمع للقول وأملك للبيان

منزلة القرآن من التاريخ

والقرآن الكريم وإن كان معتبرا من التاريخ القصصى، الا أن له منزلة خاصة فى نفوس أكثر المؤرخين الذين يبحثون عن الحقائق العلمية التاريخية، مجردين عن كل ما يتصل بالعاطفة الدينية أو الجنسية، وهذه المنزلة تجعله فوق كل اعتبار، ومهيمنا علي كل الآثار التاريخية، من قصص أو كتابة أو نقوش

أما بالنسبه للتاريخ القصصى، فان للقرآن أسلوبا خاصا يغاير أساليب الكتب الاخري فى سرد الحقائق التاريخيه، وتفسير المظاهر الكونية، فالكتب الدينيه كالتوراة مثلا، تتعرض لسرد تاريخ مفصل ممتع لذيذ لكل أمة من الامم التى كان يهم الاسرائيليين أمرها بأسلوب قصصى رائع يأخذ على العقل مسالكه، ويضعه فى روضة أنيقه من رياض الخيال الفطري، تعبق فى أرجائها براءة الدين وطهارة الطفولة الفكرية

أما طريقة القرآن فى هذا فهى أن يذكر أشياء عامة مجملة بحيث

يعنى العناية كلها بإخراج صورة متقنة لا لبس فيها ولا غموض تتحمل كل معني مستقيم وتتقبل كل تأويل لا يتنافى مع ذوق اللغه وأوضاعها

وحسبك أن توازن بين الاسلوبين في بعثة موسى عليه السلام ومناجات الرب له، وهي مسألة تاريخية فانك تجد التوراة قد فصلتها تفصيلا دقيقا ، حيث حددت ذات الآله ، وأوصافه ، ولونه ، والارض التي كان عليها ، والمكان الذي نزل منه ، والصوت الذى تكلم به، إلي غير ذلك مما تسبح فيه العاطفة الدينية الي حدما

أما القرآن فقد صور لك الحادثة بأجمع أسلوب ، وأوضح بيان، ذلك بأنه لم يحدد الاله ، ولم يذكر صفات المكان الذى نوجي منه ، ولا حدد صفة المناجاة ، وكل ماهنالك أنه ذكر كلمة عامة تتقبل كل ذلك حيث قال : « آنس من جانب الطور نارا . . فلما جاءها نودي أن بورك من في النار » . . . حتى حادثة رفع الجبل التي قد استجاب فيها اليهود إلي خيالهم ، لم يزد القرآن أن قال: « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة »

هذا في سرد الحقائق التاريخية أما فى تفسير المظاهر الطبيعية فهناك وهناك وحده نجد المذهب اللاهوتي قد قال الكلمة الاولى والأخيرة فى تفسير كل صغيرة و كبيرة مما يشغل بال الناس، و يهمهم معرفته

أنظر إلى تفسير التوراة لاختلاف الالسنة والالوان والرعد والسحاب . . . فان التوراة تفسر ذلك بأن الشعب البابلي كان يبتنى له

صرحا يبلغ به أسباب السموات ، فنزل الرب وحطم الصرح ، وبلبل الالسنة ، حتي لا يتفاهم الناس فلا يتموا العمل الذي ابتدءوا فيه ، ومن هنا سميت الارض بابل وعللت اختلاف الالوان بأن أحد أولاد نوح كشف عورة أبيه فدعا عليه أن يكون عبداً لاخوته ويسود جلده . . . !!

أما القرآن فلم يتعرض لمثل هذا القول ، بل جعله عبرة وذكري ، وآية على وحدة الخالق ، وقدرته ، حيث قال : « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »

هذا بالنسبة للتاريخ القصصى أما بالنسبة للآثار المدونة أو النقوش المكتوبة ، فالتاريخ نفسه أكبر شاهد على أن معظمها كذب وبهتان وما حوادث رمسيس الثاني التى كان يمحو فيها آثار الملوك والكهان من الهياكل ، ويكتب اسمه عليها عنا بخافية ، وقد فعل اخناتون مثل فعله ، وفعل غيره مثل ذلك فى كل عصر ، وفى كل بلد حتي أصبحت الآثار من أوهى الادلة فى عصرنا ، ان لم تؤيدها الحوادث الصحيحة

هذه منزلة القرآن بالنسبة لأدلة التاريخ ، أما منزلته من حيث ما أودع فيه من الاسرار الكونية ، والاخبار التاريخية ، فنحن نقصر الحديث فيهما على بيان وجهة نظر التاريخ نفسه

فقد ذكر القرآن فى غير موضع من آياته التاريخية ، أن أمورا

ستحدث وقد أيدت المشاهدات والتجارب صدق ذلك كوعد الله رسوله بالنصر وفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وها قد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وأنجز وعده مع ما كان يحيط به من أحوال تجعل الثقة فى إنجازها أوهى من بيت العنكبوت ، لضعفه ويتمه وانفراده فى وسط هذه المعامع الصاخبة، وتلك الجيوش المعاندة التي تتألف من قريش وأحلافها أهل اللدد والخصومة

وكما ذكرلنا أموراً مستقبلة فقد تحدث إلينا عن الماضين وأحوالهم ولا نزال نرى فى كل وقت مكشوفات علمية تحمل فى طياتها آية من آيات القرآن وصدقه فيما حدث وأخبر

ومن سنوات معدودة كان العلماء إذا سمعوا عن المدنيات القديمة التي تحدث عنها القرآن فى بلاد العرب من اليمنيين وعاد وثمود يبسمون عن سن متهكمة ساخرة ! ! حتي اذا ماحقق الكشف الذى قام به بعض علماء الآثار مثل « جوزيف هاليفى وجلازر » وغيرهما بعض هذه الجهات إذا بهم يطأطئون رءوسهم أمام جلاله وصدق أخباره !

واذا نظرت الى تفسير القرآن لمظاهر الطبيعة وجدته يحث على النظر الحر والاستقراء الدقيق . . . وها نحن أولاء نري العلماء يكشفون ويخترعون، وقد غصت المدنية بأنواع المعارف والعلوم المتنوعة، وما وجدنا علما يتنافى مع القرآن بل كثيرا ما نجد نصوص القرآن تشير اليه من طرف خفي : ألا تري أن فى قوله تعالى « ألم تر إلى

ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا »
إشارة لطيفة إلى اختراع التصوير الشمسي ؟ وفى قوله تعالى « كأنما يصعد فى السماء » دليلا على أن الانسان إذا ارتفع فى الجو وجد الهواء غير صالح للتنفس ؟

هذا وقد ظهر حديثا كتاب (فى أسرار القرآن الفلكية) لقائد من قواد الجيش التركي أتى فيه بالعجب العجاب : حيث استخرج كل مسائل الفلك الدقيقة، وقوانينه الهندسية البديعة، وما انتهى اليه العلم الحديث فى كل مسألة من مسائل الجغرافيا الفلكية من نصوص القرآن وإشاراته بأوضح بيان وأجلى برهان . حتى لا يشك من يطلع عليه أن الآيات ما وضعت إلا لتفسيرها، ولكنها ظلت أحقابا لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم

وللأديب « داود الانطاكى» كتاب فى أسرار القرآن الطبيعية أتى فيه بأحدث المسائل التى تكلم فيها اليونان وحكماء الغرب فوجدها من ألفاظ القرآن تنبع ومن رياضه تزهر وتثمر . . .

وذلك لأن القرآن ليس كتاب أمة واحدة لعصر معين إنما هو كتاب الدهر بأجمعه ، وحجة الله القائمة مدى الحياة ، ونور العقول الحرة وسراجها مهما ارتقت ، وأدب الطبيعة الانسانية حيث حلت وأنى وجدت ، ولغة الحياة ، إذا تكلمت خشعت الاصوات لها فلا تسمع إلا ركزاً . . .

هذه كلمة خطرت لنا أثناء البحث في درجات التاريخ . أما نظر العلماء للقرآن من حيث أنه كتاب سماوي موحي به من عند الله . . . فتلك مسألة أخري لا أود أن أثير عجاجها في هذه الرسالة الصغيرة.



الباب الثانى

في علم اللغات

الفصل الأول

مجاميع اللغات

إذا أنعمنا النظر على وجه المعمورة رأينا أجناسا بشرية كثيرة العدد لكل واحد منها لغة خاصة يتفاهم بها مع من تربطه وإياه أواصر الجوار ووشائج القربى، ووجدناه أيضا يختلف اختلافا بينا فى طبيعة اللون وتركيب الجسم . . . فمنه الأبيض الناصع، والأسود الفاحم، والأشقر القمحى، والأصفر الفاقع . .

أمام هـذا الاختلاف البين في الاجناس والالوان، والتبلبل الظاهر فى الالسنة ـ اضطر علماء اللغات إلى حصر هذه المجموعات الشتي فى أصول يسهل تفرعها وضبطها، ولهم فى طريقة هذا الجمع مذهبان:

(ا) دينى

نشأ على حسب رواية التوراة فى أصل الخليقة وتبلبل ألسنتهم فقد حدثتنا: أن الطوفان اجتاح سكان الأرض ولم ينج منه سوي نوح وأولاده الثلاثة : سام، وحام، ويافث وما حمل معه فى سفينته

من كل زوجين . . . فنوح هو الأب الثانى للأجناس البشرية . وعن أولاده الثلاثة تفرعت إلى السامية ، والحامية ، والآرية (اليافثية) . وعلماء هذا المذهب يبحثون عن اللغات البشرية علي هذا النسق مبتدئين بالأهم منها

(ب) طبيعي

ينظر إلي الألوان والتركيب الجسمى ويجعل اللغات التي يتفق أهلها فى الخلقة ـ مجموعة واحدة . . .

ومهما يكن من أمر هذا التقسيم فان علماء اللغات قد وجدوا بالبحث والاستقراء أن أغني اللغات الإنسانية ، هما السامية والآرية ، لانهما اللتان تركتا آثاراً خالدة ، وفخاراً مجيداً يزفه على الناس أسباب حياتهم ، بما أنتجته عقول أبنائهما من أفكار فلسفية ، وقواعد علمية صحيحة بما كان لهما من السلطان فى العصور التاريخية القديمة ، وقد كانتا تنزلان فيما بين الصين شرقا ووادى النيل جنوبا ، وأهم الأنواع التي تفرعت عن كل واحدة منهما تتلخص فيما يأتي :

(١) فالجنس السامى

أهم فروعه البابليون ، والآشوريون ، والكلدانيون وكل أولئك فى المشرق من بلاد الجزيرة العربية حيث العراق وما بين النهرين والكنعانيون ، والفينيقيون ، والآراميون ، والعبرانيون ، والسريانيون

وهم فى المغرب منها حيث الشام وبادية السماوة

والمؤابيون ، والعربيون ، والأحباش فى جنوبيها

وقد كانت لغاتهم جميعا متقاربة ومتناسبة كما سنذكر ذلك

(٢) والآرى

أهم أممه الفارسيون والهنود فى المشرق ، والليديون والميديون فى آسيا الصغري ، « والاندوجرمانيون » فى أوروبا جميعا فالقسم الشمالى الشرقى منها عرف بالجنس «السلافى» فى روسيا ، والجنوب الشرقى عرف « بالاغريق » فى بلادالیونان ، والجنوب الغربى عرف « باللاتينى » فى إيطاليا وا سبانيا وفرنسا ، والشمالى منه عرف بالجنس الجرمانى التيوتوني، ونزل حيث ألمانيا والنمسا والمجر والسويد وهولاندة وانجلترا . . .

وبما أننا من أبناء اللغة العربية فجدير بنا أن ندرس اللغات السامية وآدابها دراسة مستوفاة لنصل بذلك قديمنا بحديثنا ، ولنقف علي تدرج هذه اللغات التي أودعها أسلافنا مجدنا وميراثنا ، ولنهتدي إلى حل كثير من مشاكلنا الأدبية والاجتماعية والدينية إذ كانت الأنسانية سائرة علي قانون النشوء والارتقاء العام

والذى حدا العلماء إلى هذا التقسيم فضلا عما تقدم هو وقوفهم على خصائص فى لغات كل مجموعة لفتت أنظارهم إلى أنها جمعاء

لابد أن تـكون سليلة أم واحدة ، وأول من تنبه لذلك اليهود فى القرون الوسطى،ولـكن المستشرقين،وخاصة الالمانين منهم هم الذين تعهـدوه بالدأب والتمحيص حتي نهض على ماتراه الآن من القوة والنضارة اللتين جذبتا اليه الانظار

الفصل الثانى

منشأ اللغات

للاستفاضة فى هذا المبحث والتثبيت من مسائله التاريخيـة والعلمية ينبغي أن نجمل القول فىمنشأ اللغات ، وقوانين تدرجها التى أصبحت بها ذات حدود وقواعد عامة ، ثم أهم العوامل فى نشوء اللهجات المختلفة التى هي أمهات اللسان الحالي

أما منشأ اللغات فيختلف العلماء كذلك فيه على رأيين :

ففريق يري أن الجنس البشرى تفرع عن أصل واحد ، وهو بذلك يرجع اللغات إلى جدةعالية لاتزال سرا مكتوبا فى ضمير الغيب

والمعقول من أقوال العلماء أنها نشأت على حسب قوانين التدرج والارتقاء : فمنها المحاكي به عن أصوات الطبيعة ، أو أصوات الحيوان والانسان ، ومنها المرتجل بقوة الفطرة الناطقة التي امتاز بها الانسان عن سائر الحيوان

ووضع الألفاظ على نسق المحاكاة والفطرة إنما تم على جملة مراحل :

فمنها أن الانسان سمع أصوات الطبيعة المختلفة كالرعد والمد والخرخرة . . . فوضع لها ألفاظا من أصواتها علي نسق ماسمع وشاهد

وكذلك أرهفت أذنه الأصوات المنكرة التى كانت تنفجر من جوف الحيوانات المختلفة لضخامتها، واستواء حناجرها، وكثرة اختلاطها به، فوضع لذلك ألفاظا علي نسق ماسمع منها، كعواء الكلب وخوار العجل، وزقاء الديك . . .

وكذلك حاكى الأصوات الفطرية فى الانسان فوضع لها أسماء على حسب ما عاين من نفسه ، وأحس من مدلولاتها كالشهيق والزفير ، والتأوه والتنهد . . .

أما منشأ تفرع اللهجات فهو أن الانسان قلما يتفق مع آخر في حس السمع وأمانة الأداء ، فأنا أسمع صوتا فأميزه بحكم مخصوص وغيرى يسمعه بجرس آخر أشد أو أضعف على حسب مراتب القوة المودعة في طبلة الأذن ، والمؤثرات الخارجية الأخرى التي تحيط به، ثم هما وإن اتفقا فى وحدة السمع يختلفان في كيفية الأداء : فإني مثلا ربما استكملت من أدوات الفصاحة ومخارج الحروف، مالم يتهيأ لغيرى فيتشعب النطق وتتفرق اللهجات

أضف إلى ذلك أن الناس يتفاوتون فى مقدار التساهل عن التعبيرات المختلفة التى يكشفون بها عن أغراضهم ومقاصدهم فبينا ترى المتنوق المدقق إذا بك ترى المتظرف المستهتر ، فتربو اللغات

وتعدد الألسنة ، فلذلك ولأن المرء وقتئذ دستور نفسه وقوله الفصل فى جميع أحواله وأعماله . . . لا غرابة أن تصبح هذه أصولا تتباعد كلما شط بها المزار وطوح بها النوى . . .

هذا على وحدة النوع البشرى على وجه البسيطة ، وأما من يرى أن النوع الانساني متعدد بتعدد أجناسه فان اللغات لديه متفاوتة مختلفة لا يمت بعضها إلى بعض إلا بصلة الجوار فقط

وعلى الفرض الأول «وهو الراجح» تفرعت عدة لهجات عن اللغة الأولى للانسان بتفرق القبائل التي كانت ترحل حيث الكلاء والمرعي

هذا وأهم اللهجات التى تفرعت عن الجدة العليا ، هي السامية والآرية ، والحامية

وقبل أن نتحدث عن اللغات السامية التي تفرعت عن الأم القديمة ، أرى أن أذكر كلمة عن المهد الاصلى لها والباقى أولادها

الفصل الثالث

المهد الأصلى للغات السامية

إذا رجعنا إلى التاريخ العلمي لا نجد أثرا نعتمد عليه في هذا المبحث فكل ما يقال فيه إذن إنما هو من قبيل الفرض والمقايسة .

. ففريق كبير من العلماء يرى أن مهد اللغات السامية هو جنوب أرمينية، ولا برهان له على ذلك سوى ماورد فى سفر التكوين من أن الطوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى نوح وبنيه وما حمل معه فى السفينة التي رست على جبال أرارات ، حيث بنى نوح هناك معبدا يقرب إلى الرب محرقاته فيه وأقام هو وذريته ما أقاموا ثم نزحوا منها إلى باقى الجهات التى ذكرناها

وفريق آخر يرى أن مهدها الأصلى هو بلاد العراق لخصوبة أرضها وقدم تاريخها . . . وقد غالى أصحاب هذا الرأى حتى قالوا إن أقدم حضارة وجدت على وجه البسيطة هى حضارة العراق ثم استفاضت منها على بقاع العالم

أما أمثل الآراء فى اعتقادنا وأقربها إلى الصحة هو ما انتهى إليه الفنيون من علماء اللغات على أنه جزيرة العرب، ولهم على ذلك براهين تؤيد دعواهم ، وتنفى الريب عنها ، ولتوضيح آرائهم نقول :

من المشاهد فى طبيعة الانسان أن اختلاف المناظر الخارجية تذكى فى نفسه نار التطلع والتفكير ، ويستحثه على توقد الذكاء وصفاء القريحة ، ويربى فى نفسه سعة الخيال وحسن التمثيل وجمال التنويع . فيكون لديه شيئان يمدانه بالمعونة والرقى أحدهما فطري فى داخله ينتزعه الخيال طوع إرادته، ويركب فيه ما حلا له التركيب خيالا بديعا يأخذ بالالباب ويستهوي الافئدة ويمتع أعين الناظرين.

والآخر خارجي، وهو ذلك المدد المتنوع الأسماء والألوان، والمتغير الطبائع والخصائص، والمتفنن في الرواء والتنسيق، فهو بعد في حياة كلها بهجة وسرور وجداني، وإن هو قطع عنه هذا المدد الخارجي فانه لا يفتأ ينفق مما أدخره أيام سعادته الروحية ثم يورثه أعقابه ونوعه . . .

كما أنه من البدهي أن الوقوف على منظر واحد مألوف يبعث في النفس هدوء وطمأنينة، ويجعل الخيال محدودا، والانتزاع منه قليل الانتاج . لان الخيال ما هو إلا انتزاع صور شاهدها الحس من الذاكرة، وتركيب صور أخرى قد تتلاءم إلى حد ما مع ما رآه وشاهده . . . وهذا الشخص الذي لم يشاهد إلا منظرا واحدا يتكرر أمام عينيه، لا بد أن يكون خياله محدودا إن لم يجد تربة خصبة ينمو فيها فيصبح هذا النقص في الخيال طابعا له ولبنيه من بعده، تتناقله الاحقاب بطريق الوراثة، حتى لو انتقلوا إلى جهات أخرى تتعدد مناظرها، وتتنوع مشاهد الطبيعة فيها، فانهم لا يزالون على عهدهم القديم من بساطة الخيال، وسذاجة التصور والادراك . . .

وعلماء اللغات الذين عنوا بالبحث في هذا الموضوع قد درسوا مجموعات وافرة من اللغات السامية والآرية، وقارنوا بين منتجاتهما الادبية والعلمية حتى، تكونت لديهم خصائص كل مجموعة، ووضحت عندهم مناحي التفكير والخيال في آثار كل عقلية من

العقليتين السامية والآرية

فوجدوا فى اللغات الآرية خيالا بديعا، ونظرة عميقة فلسفية إلى بواطن الاشياء، وحيرة بادية على عقولهم لعجزهم عن تفسير ما غمض عنهم من أسرار الطبيعة وجمال هذا الكون البديع الذي يدهش اللب ويدع العقل حيران مضطربا !!

ولما درسوا اللغات السامية وآدابها وجدوها تتقارب فى نوع التفكير، وروح البحث، ووسائل التعبير عن أغراضهم المختلفة: فليس لهم إلا النظرة السطحية التى لا تمس شغاف الحقيقة، ولا تصل إلي لب المعنى وقراره، وليس لهم هذا العقل الجبار الشاك الذى لا يهدأ أو يدرك ما يريد! وإنما لهم هذا العقل المطمئن الوادع، والفؤاد الهادىء الساكن . . . فأنى لهم هذا المنحى فى خيالهم وتفكيرهم إذا لم يكن مهد حضارتهم الأولى هو بلاد العرب التى لا تكاد تختلف مناظرها من هضاب إلى رمال، إلي سماء صافية الأديم، وأرض كئود لا يبض حجرها، ولا تندى صفاتها، ولا تبل إحدى يديها الأخرى . . . فليست لهم هذه المروج الخضراء التى تتدرج على سفوح الهضاب ذوات الألوان البهجة، والرياحين العطرة، والأزهار المبتسمة، وليست لهم هذه الأنهار، التى تتكسر على صفحاتها حبات القلوب، والتى تنساب أمام ناظرها ميمونة الغدوات، مباركة الروحات، تمخر عبابها السفن الجاريات فيها كالاعلام، إلي غير

ذلك مما هو إمتاع للنفس ورفاهية للحياة !

فكل ما صادفوه في بلاد العرب هـذه الاوقات القديمة هو رهبة الصحراء وجلالها ، وروعة الطبيعة وبهاؤها . . . فأكسبهم ذلك هدوءا فى تفكيرهم ، وتسليما مطلقا للإله فى مصير أمورهم، ومن هنا تدرك السبب فى أن صحراء العـرب هى مهبط الوحي، ومنبع النور الالهى :

ففيها تجلى الله لموسى فى طور سيناء وهى شعبة منهـا ، وفيها أرسل ناموسه الاكبر إلي عيسي فى جبل ساعير وهو ببادية الشام التي هي الطرف الشمالى لجزيرة العرب، وفيها أشرقت شمس الاسلام فى جبال فاران بمكة المكرمة كما ورد فى التوراة

ولهذا قال بعض المؤرخين « إن الذي نجعله نصب أعيننا في تمييز كل منهما عن الاخرى هو : أن التفكير الآري يرجع إلى تقوية الخيال وتنميته ،أي أن مبدأ التفكير فيه من الداخل ولذا نري بين أفكاره كثيرا مما لا وجود له فى الخـارج . أما السامى فعلى العكس من هـذا : تفكيره فيما تجلبه إليه الحواس من الخارج غالبا ولذا نرى كثيرا مما فى الشعر العربي حقائق،وما فيه من خيال يغلب على الظن أن يكون آري الجنس ، ولهذا رجحت كفة القائلين بأن كليلة ودمنة مترجم لا موضوع»

هـذا هو ملخص آراء العلماء فى هذا المبحث وهو كما يرى

الباحث لا يخلو من مبالغة ومغالطة مبناها تعصب الاوروبيين للغتهم ولجنسهم الآرى ولكنه على كل حال يعطينا صورة واضحة عن مناحي التفكير والتصور لدى الامتين

وإذا صح بعد هذا أن جزيرة العرب هى المهد الاصلى للساميين فتكون اللغة العربية القديمة هي أصل اللغات السامية ، وبالتالي يكون الاعراب القدماء هم البقية الباقية من الارومة السامية الاولي

الفصل الرابع

خصائص اللغات السامية العامة

إن للوسط الطبيعى الذى نشأت فيه الأمم السامية ، وتبادل المنافع التى كانت لديهم بمثابة الوشائج والروابط الاجتماعية ـ أثراً نلمسه فى لغاتهم ، وخصائص ندركها فى أذواقهم ، وطرق بحثهم ، وتدوين معارفهم ، ومختلف لهجاتهم ، فهم وإن أصبحوا أجناسا متمايزة ، وقبائل متنافرة ، لكل منها مقوماتها وتاريخها . لم تزل هناك علاقات واضحة ، تضم شتات هذه اللغات ، وتنطق بما كان لها فى العهد القديم من حرمة الاتصال ، ونسب القربى

وأهم مالاحظه علماء اللغات من الخصائص بين جميع اللغات السامية التي تتميز بها عن مجموعات اللغات الآرية هو ما يأتي

(ا) نري أن اللغات السامية على اختلاف درجاتها تعني العناية كلها بالألفاظ والحروف فيضعون لكل معنى حروفا كثيرة حتي إنك ليأخذك العجب أن ترى لكل نبرة من خلجات النطق الطبيعي حروفا تدل عليه ، فالتضخيم له حروفه المشهورة ولا سيما فى اللغة العربية ، وللترقيق حروف خاصة كذلك ، وللصفير والاشمام وغيرهما من تفاصيل النطق الطبيعى مثل ذلك . على حين قد أهملت اللغات الآرية كل هذا ،واستعاضت عنه بالحروف الصوتية التي لا نجد لها أثرا فى اللغات السامية

فبينا نجد اللغات السامية قد أسرفت في وضع الحروف المختلفة للدلالة علي النطق إذا بها لم تعن بوضع حرف يدل علي الفتحة أو الكسرة . . . الخ مما اضطرها الي اختراع الاعراب الذى هو تغيير أواخر الكلمات وتحديد الدلالات من الالفاظ أما اللغات الآرية فالفتحة والضمة، كل أولئك له حروف صوتية تدل عليه فى الكتابة

(ب) اذا أخذت بمجموعة من قواميس اللغات السامية وأنشأت تقارن بينها وتتبعت تصاريف الكلمات الوصفية وصيغ الالفاظ الدالة على المعانى المختلفة رأيت أن معظم هذه الأوصاف والمشتقات يرجع فى أصل اشتقاقه إلى أصل واحد هو اسم من أسماء المحسوسات التى تعارف الناس عليها قديما وجعلوها مصدرا لكل هذه المشتقات والمعانى الفرعية التي نشأت عنها ، والتي يرجع في مجموعها إلى الاسم القديم الذى

تعارف الناس عليه باصطلاح كلمة «فعل» وأكثر ما نجد هذا الفعل مكونا من ثلاثة أحرف ولهذا نجد فى جميع اللغات السامية أن الفعل الثلاثي هو أصل المشتقات وهو الميزان الصرفى لباقى الكلمات وما عداه من الرباعي وغيره إنما هو فرع عنه

وتختلف اللغات السامية في تطبيق هذه الخصيصة وأعظمها استفاضة وشهرة في ذلك إنما هى اللغة العربية كما نعلم ذلك من علم الصرف والقواعد

وهذا مالا نعثر عليه فى اللغات الآرية فذوق اشتقاقهم وتركيب نعتهم إنما هو بزيادة حرف أو نقصانه عن اسم جامد وقلما تجد للاسم الجديد صلة بالمعنى القديم وهذا على ما أظن ناشىء من فقر اللغة الآرية كما سنبينه بعد

ولهذه الميزة وحدها يسهل علينا أن ندرك الفرق بين طريقة البصريين من علماء اللغة العربية والكوفيين فى مبدأ الاشتقاق وأصله، فالكوفيون يرون أن الفعل هو أصل الاشتقاق وعنه تفرعت باقى الاوصاف من اسم الفاعل والمفعول.. ألخ. علي حين تجد البصريين يرون أن المصدر هو أصل المشتقات، وما حدا البصريين إلى القول بذلك إلا تشبعهم باللغة الفارسية الآرية وطرق اشتقاقها وذوق أهلها فى التحويل والدلالة لأن البصرة قريبة الجوار من الفرس ومعظم أهلها منهم بخلاف الكوفة فهى بدوية أعرابية وإن كان

فيها أعاجم

(ج) ـ وهناك ظاهرة عامة بين اللغات السامية تميزها عن اللغات الآرية؛ ولكنها على عمومها لا تظهر جلية الا فى اللغة العربية، وهي (الاعراب): الذى هو تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليه . واللغات السامية تتفاوت فى ذلك تفاوتا ظاهراً فقد لا يتيح لك البحث أن تجد له أثراً قويا في اللغات البابلية والعبرية والسريانية ولكنه مع ضآلته فى تلك اللغات يدل علي أنها كانت تسير مع باقى أخواتها فى شعب واحد، ولكن السبل شطت بها، وردتها علي أعقابها بينما اللغة العربية أختها قد قطعت فى سبيل ذلك مراحل مباركة زادت فى ثروة اللغة وقربتها الى الغاية المنشودة من الكمال حيث جعلت اللفظ الواحد يؤدى أغراضا مختلفة، فوسعت بذلك مالم تستطع لغة أخرى أن تسع له من دلالات جمة كثيرة بلفظة واحدة تتشكل لكل معني علي حسب ما يوافقه على قانونها النحوى البديع الذى هو سر نجاحها وبلاغها بين اللغات الحية، وتعميرها هذا العمر المنقطع النظير في تاريخ اللغات؛ ولست أريد أن أفصل القول فى سر هذا الامر فهو بمبحث اللغة العربيه أمس منه بأى مبحث آخر، ولكني أود أن أقول: إن الذى سهل للامم السامية ذلك هو أنهم لم يستطيعوا أو لم توافقهم حناجرهم الطبيعية أن يضموا كلمة إلى أخرى لتؤديا معنى عاما فيها كما هو الحال فى اللغات الآرية التي أو شكت أن تكون

ألفاظها محدودة، وأساليبها معروفة، وطرق التعبير فيها واضحة لا تظهر براعة ولا يستقيم فيها الافتنان والتنوق الذي هو سر اللغات السامية وجمال وجودها وسبيل إعجازها

وهذا يعد حضارة لغوية جليلة ولذا رأينا بعض اللغات الآرية تستعير هذا الثوب الجميل من معرض الساميين وتلبسه وتجتهد بعبقرية أهلها أن تصبغه بصبغة آرية حتى لا تظهر عليها مسحة الاستجداء وتلك اللغة هي اللغة الالمانية المحبوبة لدي الساميين ، فهي اللغة الآرية الوحيدة التى تجد فيها ما يشبه الاعراب

(د) ولهذا السبب وحده ترى الامم السامية تميل بلغتها إلى المحافظة على هذا الكنز الثمين محافظة الشحيح بماله والجبان بنفسه فترى الاسلوب الواحد والعبارات المتنوعة والالفاظ الجمة المعاني تستعمل على قرون عدة وأزمان متفاوتة لا تخلق جدتها على الايام ولا يعتريها وهن ولا خور كأنها لغة الطبيعة قد قدت من كل إنسان وركبت على كل حنجرة، وشملت كل معاني الحياة فأخلدوا إلي الراحة وتماسكوا بالقديم القوي، وأغنتهم الطبيعة البارة أن ينصبوا أنفسهم ليغالبوا الحياة ويجددوا من لغتهم وحناجرهم حتى يستطيعوا أن يعيشوا عيشة تسكن اليها نفوسهم وتطمئن لها أفئدتهم كما هو الحال في اللغات الآرية التي لا تكاد تتفاهم مع من سبقها بعدة قرون لكثرة الاختلافات وتنوع التعابير وكثرة الألفاظ المستحدثة، وترك القديمة وإدخال كلمات لا صلة لها

بقديمهم ولا تقاس عليها لا برسم ولا بصوت ولا بدلالة. فكأن الطبيعة قد جعلتهم أمة ممتازة في كل عصر على حين تجد اللغات السامية تناجيك من آلاف السنين وتتحدث اليك فكأنها لغتك التي تنشئها وأسلوبك الذى تخاطب به فهى سلسلة متصلة الحلقات متشابهة الاوضاع وأعظم ما تجد ذلك واضحا فى اللغة العربية أصل اللغات السامية كما سبق

تلك هى الخصائص العامة التى لاحظها علماء اللغات فى الفرق بين المجموعتين السامية والآرية وهناك خصائص أخري لاتخرج عما ذكر. كما أنك تلاحظ أن اللغات السامية تتفاوت تفاوتا كبيراً في هذه الميزات حتى ليخيل إليك أن القرب بين لغة آرية ولغة سامية قد يكون من الوضوح أعظم من مقارنتها بلغة سامية أخرى ولهذا أسباب نذكرها فى كل لغة على انفراد

الفصل الثانى

خصائص العقلية السامية

« الحياة العقلية لامة من الامم ميزان حساس يقدر به مقدار نهوضها وما وصلت اليه من الرقى والحضارة فى نظامها الاجتماعي ونواحي العمران فيها فاذا رجحت كفة هذا الميزان عند قوم تجلى بالطبع تبعا لذلك كل مالديهم من الرقى المدني والنهوض الادبي بمقدار

الرجحان فيه »

فاذا صحت هذه النظرية، وتلك القاعدة كان الساميون القدماء قد بلغوا من المجد أوجه وتسنموا العز والفخار: حيث قد علمنا أنهم هم المؤسسون المدنيات القديمة والحضارات العظيمة التي انتشرت علي وجه البسيطة. فمنهم البابليون الذين مارسوا من النظريات العلمية ما نعده الآن جديداً ومن محدثات هذا العصر. فلقد دلتنا آثارهم التى كشفت حديثا علي أنهم نظروا فى العلوم الفلكية وهذبوها ورصدوا كواكب السماء وقدروا منازلها وصنعوا لذلك آلات وإرصاداً لا تزال موضع بحث وتدقيق بين العلماء لمعرفة أسرارها وتكوينها كما بحثوا فى الشرائع والقوانين والعادت والعقائد بما يعد النواة التي بني عليها علم الاجتماع التشريعي، والكنعانيون هم واضعو أساس الخطوط الصوتية وعنهم تفرع الخط فى بقاع العالم الآرى منه والسامي. وكذلك هم المخترعون للسفن ونظام التجارة والمستعمرات وحكمها. والنبط هم واضعو علم الفلاحة والزراعة ولا تزال الامم تدهش لما وصلت إليه هذه الأمة من التفنن فيهما ونظمها وحساباتها وأوقاتها. والعبرانيون هم أول الامم التي اهتدت بهدى التوحيد فى وسط الجيوش المظلمة من الوثنيين وقد عنوا بالبحث عن آثار التاريخ القديم لديهم وأطواره وعلله ووضعوا لذلك تفسيرات جليلة تعد الآن من العلوم الجديرة بالبحث والاستقراء وهكذا باقى الساميين

فاذا كان هذا صحيحاً فما بالنا نرى المستشرقين الآن ينعتون الساميين بعقم الانتاج وسذاجة الحياة الاجتماعية وعدم علمهم بأساليب السياسات المختلفة ، وغير ذلك مما دبجه يراع العاهل الفرنسي رينان كما أنهم (خلو من الروحانية السامية التى عرفها الهنــود والألمان ، ومجردون من الذوق الفني والاحساس بالجمال الذى نما وكمل عند اليونان ، وليس لهم هــذه العواطف الجياشة الرقيقة التى اتسم بها الفرنسيون أهل الفصاحة واللسن) . إلي غير ذلك مما نفثه يراعه المفلول . . . فى كتابه « تاريخ اللغات السامية »

وغالب ظني أن الذي حملهم على ذلك راجع إلى ثلاثة أشياء

(١) أنهم رأوا أنفسهم مسيطرين على أمم الشرق مادياً، ومستغلين مجهوداته جميعها، وهم مع ذلك يشعرون أنهم رسل الانسانية والحضارة فى الأرض وأن واجبهم أن يشعروا المغلوبين علي أمرهم أنهم لا يصلحون لحكم أنفسهم استقلاليا لأنهم قوم خاملون لا يستطيعون أن يعيشوا بغير رقيب ولا وصى ! !

هذا إذا ناجوك من جهة السياسة والحكم والحرية فاذا تحدثت اليهم من جهة العلوم والآداب رمونا بالجمود وضيق الفكر وعقم الخيال شأن المعاند الابق الذى أوتى بسطة فى القــول وذرابة فى اللسان وحظا من القوة فهو يصرفها كيفما يشاء لايرقب ضميره العلمى المزعوم ولا يخشى لومة لائم فى ذلك

(ب) أنهم رأوا أنفسهم أرباب المخترعات النافعة ورسل التحول الانتقال فرمونا بالجمود والمحافظة، ونسوا أن المحافظة كالوثوب كلاهما ضروري لحفظ الحياة وما علموا (أن بين بناء العالم المادي وبين تكوين الجماعات الانسانية أوجها من الشبة تمثلها عناصر لازمة لحفظ النظام في كليهما: ففي الجوهر الفرد كهارب ايجابية وأخري سلبية وفى الدقائق المادية قوتا جذب ودفع . . .

وعلى هذا النمط نجد الصفات السلبية التي نبغضها فى المجتمع هى فى الواقع أشياء لازمة للمحافظة علي كيانه باعتباره اجتماعاً انسانيا تنعكس على صفحته صور الصفات الفردية والاجتماعية)

(ج) أنهم اتقوا وخافوا أن تكون ونحن أبناء أولئكم العظماء الذين شادوا صروح المدنيات نرضى بالذل تحت أيديهم فنتطلع إلي الحرية والاستقلال فأرادوا أن يشوهوا ماضينا ويقطعوا الصلة بيننا وبين تاريخنا المجيد ليسهل علينا الهوان ولكن هيهات ـ . . .

لبث قليلا يلحق الهيجا حمل * . . . . .

وبعد فدائرة المعارف البريطانية نفسها تنعي على رينان وأصحابه هذا التعصب وتقول: « ليس من صواب الرأى مافعله رينان . . . باضافتهم صفات خاصة للجنس السامي هى فى الواقع ناشئة عن عوامل خارجة، فهى نتيجة البيئة التي عاشوا فيها، والظروف التى أحاطت بهم، ولو أنهم عاشوا فى بيئة أخرى لظهرت لهم صفات جديدة »

الباب الثالث

البابلية ـ الآشورية

الفصل الاول

البابليون

يجمل بنا بعد دراسة المقدمات العامة التي تناولنا فيها منشأ الساميين وخصائصهم ومهدهم الأصلي، والفرق بينهم وبين الآريين، وما تميزت به كل مجموعة من هذه المجموعات اللغوية ـ أن نأخذ فى دراسة كل لغة علي حدة بادئين باللغة البابلية الآشورية اذ كانت أصل اللغات السامية ، ومنبع حضارتها فى نظر الكثيرين من العلماء

قد ذكرنا أنه فى أواخر القرون الوسطى عند ما رحل العرب إلي الاندلس وامتزجوا بأهلها كان ممن احتك بهم وأخذ عنهم علومهم وآدابهم وفلسفتهم ـ اليهود ولاسيما فى عهد ابن رشد « فى المدة التى كان فيها منفيا عندهم » فانكبوا على دراسة اللغة وآدابها ليستطيعوا بذلك أن ينقلوا علومها إلي اللغة العبرية ، ليتمكنوا من نقلها الى اللاتينية ، وفى أثناء دراستهم تنبهوا إلى العلاقات الظاهرة بين اللغات السامية فأخذوا فى موازنتها حتى أصبحت هذه الابحاث على ضآلتها النواة المباركة التي التف حولها المستشرقون وغذوها بالكشف عن آثار الحضارة القديمة فى بلاد العراق ووادى الفرات

عثروا أثناء هـذا البحث على نقوش ورواميد بالقرب من « نينوى » عاصمة الآشوريين فظنوها آشورية، وأطلقوا لذلك على حضارة العراق قديما لفظ « آشورية » ولـكنهم أحسوا بعد توالى الـكشف أن هذه اللفظة لاتفى بالمراد ولاتوضح المعنى تمام الوضوح فأطلقوا عليها لفظ « بابلية آشورية » على أن ما أثر عن البابليين أنفسهم هو أنهم كانوا يطلقون عليهم وعلى لغتهم وحضارتهم لفظ « الأكادية »

والذي يعنينا من كل هذه المقدمة أن نذكر أن العراق كان يسكنه قبيلان كبيران أحدهما فى الجزء الجنوبى وهم البابليون، والآخر في الشمالى وعرفوا « بالآشوريين »

ويذكر المؤرخون أن هذه البلاد قد تواردت عليها أمم وسادت فيها مدنيات من أجناس مختلفة كل دولة تترك أثراً فى البلاد يغير من لهجتها ، ويحدث فيها أنواعا من اللكنة والرطانة لايستقيم معها بيان ، ولا تربو فيها فصاحة ، ولهذا قلما تعثر على لغة صحيحة تستطيع أن ترجعها إلى أصل معروف فى هذه البلاد ، وكل ما يعلم عنها أنها خليط من لغات متباينة تتقارب حينا وتتباعد أحيانا كأنها

ملاعب جنة لو سار فيها * سليمان لسار بترجمان

وهذه الظاهرة لاتجد لها شبيها في باقى الأسر التى هاجرت وذهبت إلى الشام من قديم الزمان، وذلك يرجع إلي جملة عوامل أهمها : أنفة الساميين الغربيين أن يمتزجوا بغيرهم من الشعوب التى كانوا

يعدونها رجسا وقذارة ، وأن حضارة العراق قبل نزول الساميين اليها كانت راقية جدا جذبت اليها كثيرا من الامم والشعوب الأجنبية مثل الساميين الذين رحلوا عن بلاد العرب وذهبوا إلي العراق وزيفه الخصب المريع

كان يسكن جنوب العراق قبل وصول الساميين اليه قوم من السومريين ذو حضارة وتجارة وعلوم وآداب لم يكن للساميين عهد بها من قبل، و كانت لغتهم تختلف عن لغة الفاتحين فى اللهجة والخصائص وبعض الحروف، ويغلب عل الظن أنها لغة آرية وذلك لأنها كانت تكتب من الشمال إلي اليمين ولأنها خلت علي حسب ماتدلنا الآثار من حروف الحلق والتفخيم المنتشرة فى اللغات السامية والتى توشك أن تكون من خصائصها العامة التى تميز بها عن اللغات الآرية .

وقد كان هؤلاء السومريون يكتبون علومهم وآدابهم ولغتهم بالخط « المسماري » وهو عبارة عن شكل مسمار يوضع فى شكل خاص ويضم إلى غيره على هيئات اصطلاحية فيؤدي معني مقصوداً وهذا الخط وسط بين الكتابة الصورية الهيروغليفية، والكتابة الصوتيه بالحروف الكنعانية الفينيقية

ولما امتزج بهم الساميون بعد أن غلبوهم على أمرهم سياسيا لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليهم من جهة اللغة والآداب بل غلبهم السومريون من هذه الناحية وألجأوهم أن يتعلموا لغتهم وخطهم

ليقيدوا بها فى هذا الوقت حسابهم وعلومهم ومدنياتهم المختلفة التى استلزمتها حضارتهم الجديدة فكأن البابليون فى ذلك أشبه بالرومان حينما أخضعوا اليونان لسلطانهم وأخضعهم اليونان لعلومهم وآدابهم

على هذا بقيت اللغة السومرية منتشرة قوية كما بقى الخط المسمارى هو المعروف فى الدواوين والرسائل نحو ثلاثة آلاف سنة يكتب به البابليون علومهم وآدابهم فأحدث هذا الأمر تغييرا فى نطق الساميين: لان بعض الحروف البابليـة السامية كأحرف الحلق والتفخيم وغيرهما لم تكن لها حروف تدل عليها فى اللغة السومرية والخط المسمارى فكان هذا الخط بمثابة سبب يقرب البابلية من السومرية على قدر ما يبعدها عن أخواتها ومن هذا التراث المقدس الذى كتب بالخط المسمارى كانت حاجة العلماء إلى معرفة هذه الخطوط والعكوف على دراسة آداب أهلها وديانتهم

والمؤرخون يختلفون فى معني كلمة « بابل » حاضرة البابليين والظاهر أن معناها (باب إل) أي مدينة الرب لأن إيل معناها الرب فى اللغة القديمة . وقد خفى هذا المعني على كثير من المؤرخين بسبب ما جاء فى التوراة فى تفسير كلمة بابل من أن الرب بلبل ألسنة القوم إذ كانوا يريدون الأمن من التفرق ؛ والقوة بالاجتماع فى برج شامخ ومدينة كبيرة . . .

وكانت بابل اسما لأهم مقاطعة فى الاقليم على السنة من كونهم

ينسبون المملكة لاسم أشهر مقاطعة فيها . وأهم ملوك هذة الأسرة العظيمة (سرجون الأول) الذى تمت علي يديه حضارة البابليين وامتدت من العراق إلي فارس شرقا وآشور شمالا والعرب جنوبا وفلسين والشام غربا وكان عصره هو العصر الذهبي فى تاريخ البابلية ففى عهده استفاضت اللغة البابليه فى الجهات الخاضعه لسلطانها وتقرب بها الملوك والأمراء وطلاب الدنيا إلى السلطان فكانت لغة التراسل والتخاطب الدولية إذ ذاك على تجوز فى اطلاق هـذا الاسم كما فعل الفرس والروم والترك فى اللغة العربية عنـد ما خضعوا لسلطانها « والتاريخ يعيد نفسه » بعد هذا العصر الذهبي خلف من بعده خلف مال إلى الدعة واتباع الهوى حتى تقلص ظل عرشه فثل بيد أسرة كنعانية سامية أتت من (الشام) وأغارت على ملكهم فقوضته وأقامت على أنقاضه ملكا صبغوه بالصبغة الكنعانية فأدخلوا كثيرا من العادات والتقاليد التي لم يكن لسكان البلاد عهد بها من قبل كالعقائد الوثنية والتقدم بالقرابين للآلهة والاصنام ، واتخاذهم الأوثان أربابا من دون الله . . .

على أن أهم أثر يذكر للبابليين عامة ولهذه لاسرة خاصـة هو شريعة «حمورابى » التي أصبحت الـكتاب المقدس لدى الشعوب القديمة البابلية : يتخذها الناس دستورهم فى الحياة الاجتماعية والدينيه (وكانوا على صواب فيما فعلوا لما يلوح خلالها من رجاحة عقـل

وإصابة رأي

وأهم ما تشتمل عليه هذه الشريعة أنها فصلت العلاقات بين الانسان وغيره من الجماعات أو الآلهة ، وسنت القوانين من مدنية وتجارية وجنائية وأحوال شخصية . . .

وقد صبغه الكهنه بلون من القداسة له من الرهبة والجلال ما للكتب الدينية لدى الشرقيين ، أو لشريعة الألواح الاثنى عشر لدي الرومانيين القدماء

وبعد بضعة قرون من هذه الأسرة التي امتزجت بالبلاد واصطبغت بها – وثب على عرش بابل قوم من « الكيسانيين » وهى قبيلة أجنبية من القبائل الرحل ، فأحدثت رجة فى العقول ، واضطرابا فى الألسنة وفوضي فى الحياة الاجتماعية والخلقيه لم تعهدها البلاد من قبل ، فبينا تجد الأوامر الدينية مهملة لاقيمة لها إذا بك تري حقوق الناس وحرماتهم منتهكة لا يرقبون فيها إلا ولا ذمة ، كأنهم ليس عليهم فى الناس وحقوقهم من رقيب

هذا وقد علم الملوك نوايا الشعب ، وبغضه لهم فأخذوا يسومونه سوء العذاب : يقتلون رجاله ويذبحون أبناءه ويستحيون نساءه حتى ثار ووقعت البلاد فى اضطراب عجز الملوك عن تشذيب أطرافه بله استئصاله فاستعانوا بالجنود المرتزقة التى كانت تجلبهم بابل من كل حدب لاذلال الشعب ، وحفظ كرامة العرش

وعلى أيدي هذه الدولة البغيضة إلي الشعب كان القضاء المبرم على استقلال « بابل » وحضارتها التي كانت منار العصور التاريخية القديمة ، واستولت عليها الأمة الآشورية مستعينة على توطيد سياستها بقوة وحشيه لاهوادة فيها ولا رفق ، ولم تلبث أن دخلت فى حوزتها فارس والشام وغيرهما

على أن دولة آشور لم يكن لها فضل على اللغة والآداب إلا فى ترجمة العلوم البابلية وفلسفتها وآدابها وديانتها فاستطاع العلماء بذلك أن يعرفوا مدنية البابليين عن طريق الآشوريين ، كما فعل السريان ذلك في علوم اليونان والرومان وفلسفتهم أوائل العصر الاسلامي « فكانت نينوى كعبة العلوم والمعارف » كما كانت «حران »والرقة

هذا وقد قامت الأسرة « الكلدانية » وهى من قدماء البابليين واستقلت ببلادها ، وعادت لها مكانتها ولا سيما فى عهد « بختنصر » الذى كانت على يديه مأساة الاسرائيلين ونفيهم إلى «بابل» وتخريب بيت المقدس ، والهياكل الدينية

وبانتهاء عصر هذه الأسرة لم نسمع ببابل بعد ذلك، إذ ظهر فى الشرق أمة الفرس ، ومحت كل معالم الدول الشرقية وأسست على انقاضها دولة الفرس الشهيرة

ومما هو جدير بالذكر أن العبرانيين عندما دخلوا «بابل» واستوطنوها وامتزجوا بالأهالى تأثروا بمعارفهم وآدابهم ، فنشأ من ذلك لون

جديد في لغة الاسرائيليين وآدابهم حتي كان ذلك عصرا هاما من عصور اللغة اليهودية

كما أن اللغة البابلية هي اللغة الشرقية التي احتفظت بالإعراب وأوضاع اللغة السامية الأولى دون أن يتطرق اليها تغيير أو تبديل فهي والعربية صنوان فى هذه السبيل . علي أن أهم أثر للبابلين هو شريعة « حمورابى » ولذا يحسن أن نفرد لها فصلا خاصا وان كان ليس من شأننا أن نتعرض لمثل هذا

الفصل الثانى

« شريعة حمورابى »

ظل الناس يعتقدون أن شريعة موسى أقدم الشرائع حتى أواخر القرن الماضى اذعثر الباحثون فى بلاد السوس على مسلة من الحجر الأسود الصلب عليها نقوش بالحرف المسمارى البابلى القديم فاذا بها شريعة حمورابى أصل الشرائع القديمة والقوانين التى أتت بعدها إذ قد جمعت كل معاني الحضاة ونظام المدنيات بأوفى بيان وأقوم سبيل . فعكف العلماء علي دراسة هذه النقوش وحل رموزها حتي وفقوا إلى ذلك غاية التوفيق . كتب هذه الشريعة فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهى تتألف من ٢٨٢ مادة مختلفة تتلخص في مباحث أهمها نظام طبقات الأمة ، ونظام الزواج ، والتبني ،

وحقوق المرأة وواجباتها ، ونظام الارث والوصية ، والعقوبات الجنائية ، وقوانين النظام المدنى والاداري

وقد ألف غير واحد من العلماء فى هذه الشريعة وتوضيحها وبيان أسرارها وعقدوا بذلك موازنة بينها وبين الشرائع الأخري التى أتت بعدها بعشرات القرون وبينوا أنها أصل جميع الشرائع على ان الاصل الذى يسهل على الطلاب مراجعته هو كتاب للمسيو «ميشيل فى أوائل هذا القرن» ترجمته دار الهلال ونود الآن أن نذكر كلمة عن كل قسم مستشهدين ما وسعنا ذلك بمواد القانون

(١) تسبيح الرب

بدأ حمورابي شريعته بتقديس الاله الأعظم، وشكره أن اصطفاه من بين الناس ليبلغ رسالته الى البشر وليكون واسطة بينه وبين الناس لاقام العدل والمساواة ، ونشر السلام والحرية وإخراجهم من ظلمات الجهل والتقليد إلي نور الحرية والتفكير الصحيح ، ثم عدد فضائله ومجهوداته التي تكبدها فى سبيل أداء الرسالة ، ومبلغ النجاح الذى صادفه فى ذلك ، ومدح نفسه بما يليق بها من التجلة والاحترام أن أدي رسالته أحسن أداء ونهض بواجبه المقدس خير نهوض ثم أخذ يسرد المواد التي أوصاه الاله بتبليغها للناس

(ب)طبقات الامة

تتكون الامة من ثلاث طوائف علي حسب ما كان شائعا في الممالك الكبري كمصر والهند والمسلمين فى العصر الاسلامى وهذه الطوائف هي الاحرار من الكهنة والاشراف وحاشية الملك ، ثم الموالى من الصناع والزارعين ، ثم الرقيق

ولكل طبقة من هذه الطبقات حقوق وواجبات لاتتعداها إلى غيرها على أن الحظوة والامتياز كانا للطبقة العالية إلي حد لا يتنافى مع الحرية والحقوق، ولكى يضمن نظام الطبقات من عبث الزمان به نص على أنه لا يصح لأحد أن يستولي على بساتين الضباط وحدائقهم بشراء أو غيره إلا فى وصية لابنه أو زوجه أو في دين عليه بعد وفاته ، كما أنهم لايذبحون فى حقوق مدنية بل تكون الغرامة عليهم مضاعفة ،وإذا أصابه مكروه في المصلحة العامة قامت الحكومة بتعويض ما تكبده من الخسائر وتبقي له بساتينه وحدائقه (إن بساتين الضباط ومنازلهم لا تباع بالفضة ،وإذا اشتري أحد شيئا منها فالبيع باطل ، ويغرم الشارى الثمن ، ويرجع العقار الى صاحبه) مادة ٣٦ و ٣٧ ألا تري أن هذه تصلح أن تكون استثناسا للأوقاف التي أتت بها الشرائع الاخرى؟

وكان للموالي أن يمتلكوا العبيد والأرضين ، ويتزوجوا من بنات الأحرار ، ولكنهم أقل تبعة فى نظر القضاء من الاحرار : فاذا كانت دية الحر إذا مات من جرحة (نصف من فضة) كانت ثلث من للمولى ، وإذا دفع الحر عشرة شواقل لطبيبه يدفع المولى نصف هذه القيمة ، والعبد خمسها (٢١٦ و ٢١٧ و ٢١٨) .

أما العبيد فكانوا يسترقون من أي جنس كانوا لافرق بين بابلى وغيره ويكونون عند مواليهم كالأموال يتصرفون فيهم كما يشاءون فى حدود الشريعة. ويلاحظ هنا التطور البديع فى نظام الرق الذي كان عاما لجميع الناس فى شريعة « حمورابى » ، حيث استثنى منه اليهودي فى التوراة إلا فى السنوات الست الأولي ، ثم العرب خاصة والمسلمون عامة فى الديانة الاسلامية.

(ب) الارث

توزع تركة الميت على أولاده للذكر مثل حظ الانثى من بعد وصية يوصي بها أودين (١٦٥) وللرجل حال حياته أن يمنع أحد أولاده من التركة إذا أثبت ما يستدعى ذلك ، ولا تتقيد الوصية بشخص بل تصح لوارث وغيره كما أنها لاتحدد بمقدار (١٦٥) والأولاد المتبنون وأولاد الجارية إذا استلحقهم الميت يرثون كالأولاد من الزوجة الحرة سواء بسواء (١٧٠) ولايرث الأب أو الزوج مع الولد (١٦٢)

على الرجل أن يفرض لأولاده «حق العروس» للذكر، و «المهر» للبنت فيأخذ كل منهما حقه فضلا عن أسهمهما في التركة (١٦٦) وإذا خشي الرجل من بعده على ذرية ضعاف خاف عليهم فان زوجه تأخذ ثلث النتاج من البستان والحديقة في مقابل عنايتها بأولادها (٣٩) فان بلغوا النكاح وآنست منهم رشدا دفعت اليهم أموالهم بالحق، وأخذت سهما كأحدهم

ومما تقدم ندرك مدى التشابة بين هذه الشريعة والشرائع الأخرى من حيث نظام الارث فانه كما لا يخفى قريب إلى حد كبير

(د) نظام الزواج

قد جمع البابليون في نظام الزواج بين عادة الشرقيين من تقديم « حق العروس » للزوجة ، وبين عادة الغربيين من تقديم «المهر » الذي تأتي به المرأة من بيت أبيها، وكلاهما ملك للمرأة يحفظان لها إلى وقت الحاجة ، فاذا ما تقدم شاب إلي عروس يطلب يدها وأعطاها هدايا فان لم ينفذ العقد فانه لا يرجع بشيء مما أنفقه (١٥٠) كما أنهم لا يعتبرون الزواج من غير عقد شرعي (١٢٨) فاذا ما عقد الرجل على عروسه فان حقوق الزوجية شرط لا بد منها فاذا خانت المرأة فانها تذبح وتطرح في الماء، فاذا التجأت إلى شخص آخر وزوجها غائب وليس لديها ما تنفقه على نفسها فان الشريعة تبيح لها أن تعاشر هذا الرجل معاشرة الأزواج ريثما يعود زوجها فيسترجعها (١٤٣)

فان كان زوجها غائبا فى أسر أو نحوه رجعت اليه ، أما إن كان فاراً من الحرب أو مصلحة عامة فانها لا ترجع اليه ، هذا إذا ثبت عليها ذلك. أما إذا اتهمت بشخص لم توجد مضطجعة معه فانها تقسم أمام الكاهن بالاله أنها ما فعلت محرما ثم ترجع إلى زوجها (١٣١) هذا كله إذا لم يقرها الزوج على سلوكها أما إذا رضى منها بهذا فلا شيء عليها مطلقا فى كل ما تأتى وتذر

وليس للرجل أن يتزوج بأكثر من حرة واحدة إلا إذا مرضت وشرط لها أن تبقي فى بيته يعولها بقية حياتها (١٤٨) ، وكذلك لا يصح له أن يتسرى الا إذا كانت زوجه عاقراً (١٤٥) ولهذا تقدم الزوجة له جارية لتلد له ، وتكون من بعد ذلك حرة هي وأولادها بعد موت الرجل

وكلا الزوجين كفيل للآخر في ديونه التى تقاضاها حال الزوجية ، وكذا ما قبلها إلا إذا اشترطا عدم التكافل فيما استداناه قبل الزوجية

والطلاق عادة بيد الرجل إلا أنه لا يستعمله إلا فى وجهه المشروع كما أن للمرأة أن تطلق زوجها أمام القضاء إذا ذكرت أسبابا تبيح ذلك فهي والرجل سواء فى تحمل التبعة وخوض غمار الحياة والقيام بالأعمال المختلفة كالبضاعة والتجارة والكهانه . . .

في العقوبات

العقوبات الشرعية قاسية تقشعر منها الابدان، وتتزايل لها المفاصل لشدة أخذها على أيدى الجناة : فابسط العقوبات لديهم القتل والذبح وهذا طبيعي فى أول الشرائع والانظمة الاجتماعية لأن عناصر الشر تتغلب علي قوة الخير التى لم يألفها الناس بعد . حيث لم يربوا علي احترام القوانين والحقوق الانسانية ، ولهذا عندما ألف الناس ذلك وتعودوا احترام الحريات وكلت الشرائع العقوبات إلي مراقبة الضمير الحي الذى تعهدته التعاليم الدينية بالوعظ والارشاد كما نجده واضحا فى الديانة الاسلامية ، ومبادئها العليا .

فى المدنيات

أما نظام المدنيات من بيع وشراء وامانة واقراض وإيجارات وغيرها فقد عنيت الشريعة بتفصيلها تفصيلا لا يختلف كثيرا عما هو عندنا اليوم من الاتقان والجودة ، وقد استغرقت فى ذلك ثلث المواد تقريبا، وحسبك أن ترى أن الانسان إذا تعامل مع صبي أو عبد لغيره من غير أن يحضر شهودا يعد سارقا ويذبح (٧) .

وبعد فقد كنت أود أن اذكر آراء العلماء فى المقابلة والموازنة بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة حمورابي ثم أعرج على موقف القرآن ، والديانة الاسلاميه منهما، ولكني وجدت أن ذلك

تخرج بي عما رسمته لنفسي في هذه المذكرة، وبحسبي أن اذكر حديثا موجزا تبين منه ما كنت أود أن أذكره :

ذكر نيلسن في كتابه « عبادة القمر عند العرب وشريعة موسى » في تعليل هذا التشابه الموجود في الشريعة اليهودية وشريعة حمورابي أن « مدين » قريبة من مصر وهي في طريق التجار اليمنيين إلي الشام ومصر ، وكانت الهياكل والمعابد تبني على شكل المعابد المنتشرة في العراق ، والعراق واليمن كلاهما تسيطر عليه عقيدة واحدة هي شريعة حمورابي ، وكان بمدين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد « شعيب » يعبد الله هناك ويتصل بكهان اليمن والعراق إذ كان كاهن مدين وشيخ المعابد والبيع، وقد جاء في سفر الخروج أن موسى عند ماخرج من مصر اتصل بشعيب هذا، وتزوج ابنته ورعي غنم الحرم وأعقب أولادا ، وأخذ عنه أصول الديانة والتعاليم الشرعية التي تلقاها عن كهان اليمن في أصول الشريعة الحمورابية. ومما يكن من تعليل هذا الأمر فانا نجد تشابها بين الشريعتين كما نجده أيضا بينهما وبين الشريعة الاسلامية. ولا ضير في ذلك فمن يدرينا لعلها شريعة سماوية لم يقصصها الله علينا ؟ خصوصا أن حمورابي ادعي أنها من عند الاله، وأنه أوصاه بتبليغها للناس، وقد اشتملت على العقيدة والتشريع. وما رأينا إلى الآن أن شريعة أدعى صاحبها أنها من عند الله بعد الشرائع الكبرى المعروفة إلا شريعة حمورابي هذه

الباب الرابع

الكنعانية ـ الفينيقية

الفصل الأول

تحقيق كلمة (كنعان)

في ذلكم الوقت الذي نزح فيه الساميون إلى بلاد العراق وأسسوا المدنية البابلية ـ نزح فريق من اخوانهم الساميين الذين كانوا يقطنون معهم جزيرة العرب «المهد الأصلي» حوالي الالف الثالث قبل الميلاد إلى جهات سوريا وفلسطين وأسسوا هناك حضارة ومدنية تضارع حضارة البابليين في العراق ، وتبزهم في نواح عدة كما سنرى

وقد ذكرنا أن البابليين لما نزحوا إلي العراق وجدوها آهلة بالسكان غاصة بالحضارة الخصبة ولكن إخوانهم الكنعانيين لما نزلوا سوريا وجدوها خلاء لاأنيس بها ، ولا أثر لانسان يدل علي حضارة أوعمارة قبل وصولهم إلى تلك البلاد ، ومهما يكن من شيء فقد توطنوا تلك البلاد وأقاموا هناك مدنيه عظيمة

وتنقسم الامم الكنعانية فريقين كبيرين لكل واحد منهما شأن يغنيه عن الالتجاء إلي الآخر والتدخل فيه ولذلك اصطبغ كل فريق بصبغة أوشكت أن تميزه عن الآخر ، وتجعله جنسا مستقلا

فالقسم الأكبر يسكن بلاد سوريا وفلسطين على السواحل وداخل البلاد . أما الآخر فقد رحل وكون له مستعمرات فى شمال افريقية وجنوب أوروبا وبعض الجزر فى البحر الابيض

وقبل أن نفصل القول في خصائص كل قسم ، وأثره فى حضارة الكنعانيين وتاريخهم - أرى أن نذكر كلمة فى تحديد « كلمة كنعان » التي لم يخل لفظها مما منى به هذا الاسم من الاضطراب ، وعدم الوفاق فى معناه ودلالته التاريخية . والذى أوقع المؤرخين في هذا أن الكنعانيين لم ينوهوا بذكر بلادهم ولا بتاريخ حضارتهم . لهذا لم يكن لدي العلماء شيء يعتمدون عليه فى هذا البحث إلا مصدران قديمان أحدهما عبري والآخر يوناني ..

(أ) العبري

كان الناس قديما فى مبدأ تكون الحضارات الاولي يطلقون على أنفسهم لفظا يكون بمثابة علم تنضوي تحت لوائه معانى الامة الاجتماعية أو الطبيعية ، ومن هنا نشأت الالقاب وتخير فى أوضاعها أن تكون مرآة صافية يتمثل فى صاحبها جوهر مدلولاتها

فاذا ما انتهجت هذا السبيل فى بحثك عن مدلول كلمة « كنعان » وجدتها تدل فى العبرانية والعربية على معني (الخضوع والانخفاض) وتنفرد العربية بأنها تدل أيضا بهذا اللفظ على معنى « الانقباض

والانضمام والتجمع » وقد جري عامة المؤرخين على المعني الأول من غير أن يتنبهوا إلي أن هذا المعني لا يصلح أن يكون رمزا للأمة الكنعانية : لأن بلادهم لم تكن منخفضة متطامنة بل هي على العكس من ذلك جبلية ذات هضاب شامخة ، وليس فيها سوى غور الأردن وهو على ماحققه بعض المؤرخين حدث بعد استيلاء الكنعانين على البلاد بزمن غير قصير فى حادثة « المؤتفكات » الشهيرة في بلاد سدوم وعمورة

كما أنهم لم يكونوا يحملون فى أنفسهم معانى الضعف والخور بل كانوا ذوى عزة وأنفة واستكبار فى الأرض

إذن لم يبق لدينا سبيل إلا المعنى الثاني الذي اختصت به اللغة العربية للفظ كنعان وهو « التجمع والانضمام »

وحقا إن اللغة العربية لهي الملجأ الوحيد الذى يركن إليه المؤرخون فى تحقيق الألفاظ السامية ولاسيما القديمة منها : فما من معني من المعاني السامية القديمة إلا وأنت واجد له لفظا يدل عليه ونظيرا يشبهه في العربية لأنها اللغة السامية الوحيدة التي دونت من أفواه أهلها قبل أن يدخها التحريف والتبديل بخلاف أخواتها فانها لم تدون إلا بعد أن اختلط فيها الحابل بالنابل

ويؤيد ذلك أن الناظر فى تحقيق الالفاظ التي تدل علي القبائل الساميه المختلفة يلاحظ أنها جمعاء تدل علي معنى « التجمع والانضمام »

وهذا الطبيعى فى الامم البدوية التى تريد أن تتحضر وتستوطن بقعة معينة تكون فيها صاحبة السلطان والغلبة إذ كان لا يتهيأ لها ذلك إلا بحبل التآخي وعدم التفرق والتنازع خشية أن يفشلوا وتذهب ريحهم

(فكنعان) تدل على القوم المتجمعين المتحدين الذين يكونون حلقة واحدة من السلسلة السامية العامة ولهذا سميت البلاد باسمهم

وكذلك لفظ « افرايم » يدل على الجمع والانضمام ، ولا يبعد أن يكون الجزء الأول من «يسرائيل» الذى هو «ى س ر » مقلوبا عن « أس ر » التي تدل فى اللغة العربية على القوة والتجمع فيكون المركب العبرانى «يسرائيل» يساوى « إسرائيل» إى عيال الله ، وهذا المعنى تماما كان يطلق على قريش فى الجاهليــة لأن كانوا سدنة البيت وخدام الحرم

ومن الألفاظ العربية القديمة التى تدل على معني التجمع لفظ (عدنان وغطفان وكنانة والرباب وشمر والحبش ...) فلما نزلوا بجهات معينة سميت البلاد باسمهم وتوارثها أخقابهم بعد

أظننا بعد ذلك الاستطراد قد استطعنا أن ندرك صورة واضحة من صور الحياة القديمة لدى الأمم الساميــة ومبلغ عنايتها بتخير الألفاظ التي تدل عليها

والذى يستخلص من رأى العبرانيين أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ على البلاد عامة ، وقد يطلقونه مجازا على أهل الأقاليم

الكنعانية مثل (صيدا وصور) لأنهما موضع السلطان وعاصمة المقاطعات ، وهذا الخلط ناشئ من نزوح قبائل آرامية آتية من صحراء العرب إلى بلاد سورية فيختلطون بالكنعانيين ، و يتكلمون بلغتهم و يصطبغون بصبغتهم ، ولكنهم يجهلون أجناسهم و نسبهم القديم فيختلط الأمر على الأمم العبرانيـة حتى لم يستطيعوا أن يميزوا بينهم . ولولا ماعنيت به الأمة العبرانيـة من التدوين عن الكنعانيين لأصبحوا اليوم في مجاهل التاريخ

يوناني :

أما المصدر اليوناني فقد كان يطلق على الكنعانيين لفظ (فينيقيين) . ويظهر من أقوال علماء اللغات أن هذا اللفظ (فينيقيين) يوناني لأنه لم يعرف في لغات الساميين ، وهو يدل على (الحمرة) لأن الكنعانيين كانوا يستعملون الاصباغ الارجوانيـة بكثرة في ملابسهم مما كانوا يجلبونها من أصداف بحر الروم

الفصل الثاني

الكنعانيون وحضارتهم

قد نزل القسم الاول من الامة الكنعانية في أربعة أماكن ومقاطعات على الساحل ، و كان أشهر هذه المقاطعات (صور وصيدا) فهما كانتا تتناوبان الزعامة والسيادة الواحدة بعد الاخرى ، كما كانتا

مركزا عاما لاحتكار التجارة والصناعة القديمة .

ولم تتجل الصفات السامية فى قطر من الاقطار بمثل ماتجلت فى هذه المقاطعات من التنافر والتحاسد حتى جعل الله بأسهم بينهم فضعف نفوذهم وذهبت ريحهم واستولى عليهم الفرس وأذلوا بلادهم وأخضعوهم لطاعتهم وألفوا منهم وحدة طالما نشدها زعماؤهم ومصلحوهم فى ظل الاستقلال والحرية فلم يظفروا منها بطائل وهكذا الخلق السامى من قديم الزمن

ولقد كان فتح الفرس لبلادهم ، وتوحيد كلمتهم وتأمين سبل الحياة لديهم من الاسباب الهامة التى ارتقت بها الحضارة الكنعانية وذلك لأنهم وجدوا فى البلاد الفارسية أرضا واسعة الاطراف فسيحة الجانب غنية بمواردها الفياضة فأغراهم ذلك على كثرة الانتاج وترويج بضائعهم فى الممالك المختلفة وإنشاء مرافىء للاسطول التجارى الفينيقى الذى كان يمخر عباب المحيطات حول المعمورة

ولكنهم بعد أن ضعف شأن الفرس وتغلب عليهم اليونان بقيادة الاسكندر ثم الرومان بعد ذلك رأيناهم يذوون شيئا فشيئا ويفقدون حضارتهم القديمة وخصائصهم التى كانت سببا فى بلاغهم بين الأمم .

وذلك أن الاسكندر ابتنى مدينة الاسكندرية ليحول التجارة القديمة من (صور وصيدا) كما فعل البرتغاليون فى العصور الحديثة

فى مدينتي (البندقية وجنوة) ، فضعت بذلك نموذهم التجارى والبحرى وجرفتهم سيول الآراميين والعرب والعبرانيين فأفقدوهم كل ما بقي لهم من أسباب النمو والبقاء واندمجوا فى غمارهم وطويت صحيفتهم الاستقلالية من عالم الوجود

أما القسم الآخر فقد نزل المستعمرات فى شمال افريقية وجنوب أوربا وجزر البحر الأبيض . وكانوا فى صراع دائم مع اليونان والرومان واستطاعوا فى أوقات كثيرة أن تكون لهم السيادة علي البحر الابيض باذلالهم لممالك أوربا الجنوبية ولاسيما فى عصر (هينبال) أعظم قائد فى العصور القديمة ولقد ساعدهم علي ذلك توحد كلمتهم وانضواؤهم تحت لواء رئيسهم فأصبحوا يدا واحدة على من سواهم . أما وقد أخلدوا إلي الراحة والسكينة فقد عاودهم العرق الدقيق فتنازعوا ودبت بينهم عقارب الفتنة حتي أخضعهم الرومان واندمجوا فى الجنس الآرى إلى يومنا هذا

فاذا كانت الحياة العقلية أساسا طبيعيا يستند إليه كل نوع من أنواع الحياة العامة وتشاد عليه دعائم كل فرع من فروع الشئون الحيوية فأجدر بنا أن نتعرف حالة الكنعانيين العقلية لنستنبط من ذلك حياتهم وشؤنهم الحيوية وما يتبع ذلك من العلوم والصناعات

لقد كانت فلسفة الكنعانيين المتوارثة لديهم عن آبائهم الاقدمين أن مظاهر الطبيعية المختلفة ولاسيما العالم السفلي منه إنما تمثله أرواح

تسكن على سطح هذه الارض وعلى قمم الجبال وشم العوالى على
عكس ما كان يعتقد البابليون من أن آلهتهم تسكن الافلاك والعالم
العلوى فاتجهوا إلى الافلاك وعلومها كما سبق بخلاف الكنعانيين
فانهم اعتقدوا أن آلهتهم تهيب بهم من آن الآخر أن يثيروا الارض
ويعمروها ويقدموا نتاج محصولها المبكر إلى المعابد والآلهة والهيا كل
تقربا إليها واستدرارا للرزق واستدامة لنعمة الآلهة عليهم

وقد دعاهم هذا النظر إلي أن يعيشوا بالحرث والنسل والزراعة
والحيوان فكانت بلادهم من أخصب بقاع العالم ومن خير ما تجود
به بلاد زراعية . ولما كثرت لديهم المحصولات وكانوا أمما بحرية
تقطن السواحل . والجبال فى بلادهم تنبت الاعشاب الصلبة الطويلة
إلى يومنا هذا حداهم ذلك إلى إنشاء السفن ليسيروا بها فى عرض
البحر واطراف الممالك يوزعون منتجاتهم ويستبدلون بها منتجات
بلاد أخري فكانوا هم واسطة التبادل التجارى وعقد المواصلات
البحرية فى الزمن القديم كما كانوا سببا فى نقل العلوم والمعارف إلى
الجهات التى كانوا يذهبون اليها

ولقد أثر فيهم الخلق التجاري وما يستتبعه من العقل الرياضى
المنظم إلي أن يتخلصوا من قيود الكتابة الصورية الهيروغليفية
والكتابة المسمارية البابلية لما كانا يستتبعانه من ضياع الوقت وعدم
الضبط وما يستتبع ذلك من الامور التي تأباها طبيعة التجارة من

سرعة الوقت وضبط الكتابة وتحديد دلالتها ومعانيها محافظة على الاموال والمواعيد — دعاهم ذلك كله إلى أن يخترعوا الحروف الابجدية الصوتية ويختزلوها من الكتابتين القديمتين (الهيروغليفية والمسمارية)

تجد ذلك واضحا فى أسماء الحروف الابجدية التى اخترعها الكنعانيون فان كل حرف منها يدل على معني من المعانى بمفرده ، فمثلا : نون : حوت ، عين : عين ، كاف : كف اليد ، ميم : ماء ، شين : سن . فكأن هذه الحروف أصبحت رمزا وبدلا عن صورها الاصلية

ولسهولة مأخذها وموافقتها لطبيعة التقدم والارتقاء أصبحت كتابة العالم بأسره ومصدرا لجميع الخطوط التى نشاهدها الآن من الآرية والسامية مع تعديل يوافق طبيعة كل إقليم وأهله . وبهذا الاختراع وحده نالوا حظا من الشهرة والقداسة التاريخية لم تحظ به أمة سواها لأنهم قدموا للإنسانية أعظم أثر تدون به آدابها وعلومها بسهولة ودقة وكذلك اضطرتهم الأعمال التجارية إلى اختراع الاعداد الحسابية التى استفاضت فى جميع العالم وهذبها الهنود من بعدهم .

هذا من جهة علومهم وصنائعهم أما من جهة تأثيرهم الديني فقد كان بالغا غايته من الرقى إذ ذاك فقد عرفنا أن مظاهر الطبيعة تمثلها أرواح مقدسة تقطن هذه الأرض فتراهم يتقدمون اليها بالقرابين ويتوسلون اليها بأنواع الزلفى ويرتلون أدعية خاصة مما كان له شأن وتأثير كبير فى عقلية الامم الوثنية من الساميين الذين أتوا بعدهم حتى

إنك لتستطيع أن تدرك لكل مسألة دينية غامضة لاتفسير لها في الديانات ـ حلا وأصلا من عادات الكنعانيين واعتقادهم

وقد يأخذك العجب أن ترى الأمة الكنعانية على ماوصلت اليه من الرقى والعلوم لم تدون شيئا عنها كما فعل إخوانهم سكان المستعمرات. ولهذا نرى كثيراً من المستشرقين الآن يعنون بالبحث عن آثارهم مستبعدين أن تكون تلك الحضارة وهذه المدنية الراقية قد ذهبت هباء دون أن يكتبوا عنها شيئا تستضيء به الاجيال المقبلة

لهذا لانستطيع أن ندرك حقيقة اللغة الكنعانية لانها لم تدون ولان الآثار التي عثر عنها الكاشفون لم تهد العلماء إلى حل صحيح يعتمدون عليه

على أن الذي لاشك فيه أنها قريبة الشبه جدا بالبابلية مما يدل على أنهما كانتا قريبتين قبل نزوحهما عن جزيرة العرب. وزاد هذا الامر تمكنا اختلاط الكنعانيين ببلاد العراق واستيلائهم على كثير من حضاراتهم ، وذوبان المفردات الكنعانية في اللغة الآرامية والعبرية ومهما كانت قريبة الشبه بالبابلية فلن يبلغ ذلك مبلغ قربها واتصالها بالعبرية والسريانية فأقرب الظن أنها إما أن تكون أصلا من أصولها وهذا ما عليه كثير من علماء اللغات . وإما أن تكون هي والعبرية قد اشتقتا من أصل واحد لارتباط الكنعانيين بالعبرانيين من جهة الجوار والمصالح الاجتماعية المختلفة التي وحدت بين الامتين .

الباب الخامس

اللغة العبرية

الفصل الاول

كلمة (عبرى) العبرانيون

لعلك إذا مابحثت عن تاريخ الأمم القديمة ومبدإ حضارتها لن تجد أمة من الامم اختلف المؤرخون عليها كما اختلفوا على الامة العبرانية

ولعل من أمتع هـذا الاختلاف الذى مني به العبرانيون من قديم الزمن أنهم لم يتفقوا بعد علي تحديد كلمة (عبرانى) والمعني الذي يرمي اليه والاشخاص الذين يطلق عليهم فكأنهم قد باءوا بمحنة التاريخ فوق ماابتلوا به من التشرد في طول البلاد وعرضها

ولعل السبب الذى اضطر هؤلاء المؤرخين إلى الخلط والتشكيك فى تحديد هـذه الكلمة إنما هو كثرة المصادر المختلفة التي عنيت بالكتابة عن العبرانيين

فبينا نجد المصادر العبرية تخبرنا أن العبرانيين هم القوم الذين رحلوا من بلاد العراق الكلدانية وعبروا النهر مع سيدنا ابراهيم ودخلوا بلاد كنعان — تراها فى موضع آخر تنسبهم إلى (عابر)

وهو الجد الخامس لهذه الاسرة — على حين نجد فريقا من العلماء المحدثين قد أرجع أصل معناها إلى العربي القديم وهو (عبر الفيافى والقفار :قطعها) وأتى على ذلك بأدلة تاريخية تثبت أن العبرانيين كانوا يعرفون بهذا الاسم فى عهد البداوة والخشونة فلما تحضروا ونزلوا المدن والامصار أنفوا أن يطلق عليهم هذا الاسم الذى يذكرهم بعهد البداوة والتيه فاختاروا لهم لقب « اسرائيل »واعتزوا به

وكذلك تجدهم يختلفون على منشئهم : فطائفة كبيرة من أحبار اليهود يرجعون نسبهم ومنشأهم إلي بلاد الكلدان يستدلون علي ذلك بما جاء فى التوراة ، ومنهم من يرى أنهم كاخوانهم الساميين نشئوا فى الجزيرة العربية ثم رحلوا منها إلي بلاد الشام كما فعل الكنعانيون من قبل في زمن لا يزال فى طي التاريخ كما أنهم لا يستطيعون أن يحددوا المكان الذى نزل فيه الساميون من بلاد العرب ولا الحادث الذى اضطرهم إلي الهجرة متحملين مرارة السفر وتجشم المخاطرات واستدل العلماء على ذلك بأن كثيرا من الأسماء العبرية القديمة تمثل لونا من ألوان الصحراء العربية وحياتها الساذجة الهادئة : فتشبيهاتها وخيالها وطابعها تمثل حياة البداوة أبلغ تمثيل فمن مفرداتها التي لا تجد لها نظيرا في الكلدانية (السعد ـ عبد الله ـ حفني ـ علي ـ نبط ـ عفراء) وغيرها من الاساليب مما تجد أكثره فى سفر (القضاة) علي هذا فالعبرية فرع مستقل كاخواتها البابلية والكنعانية

الفصل الثاني

ملخص تاريخهم كما ورد فى كتب اليهود

ا) يبتدىء تاريخ العبرانيين من خروجهم من بلاد الكلدان فى العراق ونزوحهم إلى حران، ثم ذهابهم إلى الأرض المقدسة ببلاد الشام، ثم ذهابهم إلي مصر بعد قصة يوسف عليه السلام وإقامتهم هناك وقد ورد هذا فى سفر (التكوين)

ب) ثم يأتيهم دور آخر كان له أكبر الاثر فى حياتهم وهو خروجهم من مصر برآسة موسى عليه السلام، ومكثهم فى الصحراء مرة التيه، واصطفاء الرب لهم بالوصايا العشر المحفوظة فى الألواح المقدسة (سفرا الخروج، والعدد)

ج) ثم يمر عليهم دور آخر كانت السلطة السياسية والدينية فيه بيد رؤساء العشائر المسمين (بالقضاة) إلي حوالى سنة ١٠٤٠ ق. م (سفر القضاة)

د) ثم يبتدئون عصرا جديدا فى الحضارة والملك على يد شاءول (طالوت) الذي حارب الكنعانيين وقتل ملكهم (جالوت) وأسس له ملكا كبيرا فى أرض كنعان (السفر الاول من الملوك) ثم يأتى بعده داود وابنه سليمان وفى عهدهما تبلغ الأمة الإسرائيلية

ذروة المجد والمدنية مما دعا كثيرا من المؤرخين أن يحيطوا حياتهما ولاسيما الأخير منهما بكثير من الخرافات مما يدل على أنه كان من الافذاذ الذين وهبوا ملكا وسلطانا لاينبغي لأحد من بعده وينتهي عصر هذه الاسرة سنة ٩٣٣ ق . م «السفر الثاني من الملوك»

(ﻫ) وبموته انقسمت المملكة الاسرائيلية قسمين : فالشمالي منهما سمي (بالأسباط) ونزل بلاد سوريا وكان بأسهم بينهم شديدا حتي أغار عليهم ملك آشور سنة ٧٢٢ ق . م وأزال ملكهم وأسس على انقاضه دولة السامريين

والجنوبي سمي بمملكة يهودا ، وقد بقيت بعد أختها حتي سنة ٥٨٦ ق م حيث غزاها بختنصر ، وهدم البيت المقدس والهيا كل الأثرية ، وأسر الأهالي وأجلاهم إلي « بابل » وهو السبي الشهير عند اليهود

(و) وفي سنة ٥٣٩ ق.م عادوا إلي فلسطين بأمر « كورش » ملك الفرس الذي استولى على بابل ، وأسقط دولة الكلدان فأخذوا يصلحون ما أفسدته القوة الغاشمة من عمائرهم ، وهيا كلهم تحت طاعة الفرس ، وسلطانهم إلى أن استولى عليهم اليونان وغلبوهم علي أمرهم بقيادة الاسكندر ذي القرنين سنة ٣٣٣ ق . م

وخلف الاسكندر على فلسطين ملوك مستبدون ساموا اليهود بسوء العذاب وأرادوهم على السجود لأصنامهم طغيانا وتجبرا فنالهم

من ذلك عنت شديد من ملوكهم ، وفتنة كبيرة فى دينهم حتي استولي الرومان عليهم فى القرن الثانى قبل الميلاد فكان على أيديهم القضاء المبرم على دولة بني اسرائيل بسنة ٧٠ م فتفرقوا أيدى سبا ومزقوا كل ممزق فى طول البلاد وعرضها

هذا ونعلم أن ابراهيم عليه السلام خرج ومعه ابن أخيه «لوط» وكذلك أعقب مع اسحق «اسماعيل» وأعقب اسحق مع يعقوب ولدا يسمى «عيسو» فكان لكل من لوط واسماعيل وعيسو قبائل وشعوب تقطن جهات مختلفة وتتميز عن الاسرائيليين فى الحضارة والمدنية

فكان من نسل لوط قبائل «عمون ومؤاب» فى شرقى الأردن من أرض خصبة هناك ساعدتهم على إنشاء مملكة متحضرة تضارع ملك بني اسرائيل وتفوقه فى القوة الحربية كما كانت لغتها هى العبرية والخط المنتشر بينها هو الفينيقى العبرى

وكان من نسل اسماعيل قبائل (العرب) المعروفة وكانت مساكنهم فى بلاد الحجاز من طرق القوافل التي كانت تسير بين سينا ومصر ولذلك نراهم يقومون بنقل البضائع التجارية بين مصر وسوريا والعراق من قديم الزمان

كما كان من أقرباء بنى اسرائيل أهل «مدين» سكان شواطيء البحر الأحمر من شمالى الحجاز

وكان من نسل عيسو قبائل «أدوم» التى كانت تسكن

(طور سينا) وحاضرتها أيلة «العقبة» وكانوا فى صراع مستمر مع اليهود من جهة السياسة والدين وانجلت الحال بفنائهم فى اليهود من الشمال، والعرب من الجنوب، والنبط من الشرق

هذا وكل القبائل التى تفرعت عن (ابراهيم) قد فنيت ما عدا بني اسمعيل وبني اسرائيل ويرجع السبب في فناء هذه القبائل إلي موقع بلادهم الجغرافى بين أكبر قوتين عرفهما التاريخ القديم وهما بابل وآشور شرقا، والمصريون غربا فكانت ميدانا للحروب المستمرة التي أصلتهم نارها وتركتهم رمادا تذروه الرياح

الفصل الثالث

تاريخ اللغة العبرانية

كانت لغة العبرانيين فى عصرهم الاول خالية من الرطانة الأعجمية ـ تظهر عليها مسحة من سذاجة الصحراء وجمال الطبيعة وجودة الخيال والميل إلى الايجاز كما كان إخوانهم فى العرب الجاهليين. لأنهم كانوا أمة بدوية تتجه عصبيتهم إلي القبيلة ورئيسها تتنقل فى الصحراء بحيوانها وأنعامها تنتجع الكلأ وتتلمس مواقع الغيث والحيا، يعدون أنفسهم أبناء الله ورسله وما عداهم من الامم رجسا وقذارة لا يقتربون منهم ولا يأكلون ذبائحهم ولا ينكحون نساءهم فأدى ذلك إلى صفاء اللغة وخلوها من الدخيل

وفى عهدهم الثاني من الحضارة والملك تعقدت الحياة لديهم واتسعت رقعة السلطان فيهم، واتخذوا ألوانا من المدنية لم يكن لهم بها عهد، واختلط بهم كثير من الشعوب الكنعانية فاكتسبت اللغة بذلك فراهة وقوة كما امتازت بان حضارتها كنعانية إلى حد كبير حيث أخذوا عنهم نظام السياسة والعمران، وبناء الهياكل، وقلدوهم فى كثير من عوائدهم الاجتماعية والدينية فتأثروا بذلك أيما تأثر وكما أنهم تعلموا منهم الكتابة والخطوط الفينيقية التي دونوا بها معلوماتهم وكتبهم المقدسة التى انتشرت فى ذلك العصر انتشارا كبيراً ويشبه هذا العصر عصر صدر الاسلام وبنى أمية فى اللغة العربية

أما بعد سبيهم فقد استقبلوا عصرا كان من أهم الاسباب فى تغير أوضاع اللغة ومقاييسها وآدابها فأدى ذلك إلي أنك تلمح في لغتهم وأسلوبها مفردات قد تسربت إليهم من الامم الآرامية المنتشرة فى وادي الفرات. وذلك طبيعي إذ أن البابليين أمة راقية ذات تاريخ وسلطان فتسرب من عاداتهم ولغتهم وآدابهم إلى الامة الضعيفة المسلوبة شيء كثير وحدث من هذا التلاقح الفكرى آثار من العقائد الدينية والفلسفية كان لها أثر كبير في حياتهم علي أنهم قد أخذوا الخط الآشورى المربع بعد تحويره وصقله على هيئة تستقيم وأوضاع لغتهم كما أنا نري أثر هذا العصر فى مراثي اليهود وعبراتهم التى هى دماء قلوبهم تندى بها أفواههم فاحدث فى اللغة رقة وأريحية لم تجد لها

نظيرا فى أدوارها، ومن أهم آثار هذا العهد دخول الأساليب الارامية التى عمت الشعب اليهودى حتي أوشكت اللغة القديمة أن تستغلق على بعض الرهبان أنفسهم فقصروا العبرية علي العبادة والصلاة واتخذوا الآرامية لغة التدوين والتأليف

هذا وفى العصر اليوناني ترى شمس العلوم تشرق على ربوع اليهود فتبدأ الافكار تنحو نحو الفلسفة والمنطق والحرية الدينية التى عمت الشعب الاسرائيلي. فهال هذا الامر علماء الدين فاخذوا يعظون الناس بلهجات ملؤها الحجج المنطقية والمقاييس العقلية علي حين كانوا يعظونهم بآيات الكتاب وفتاوى الرهبان فلم يزدهم ذلك إلا استرسالا فى الملذات ونبذ التعاليم الدينية ظهريا فتمخضت تلك الحال السيئة عن أعلام أخذوا يوفقون بين نصوص الدين ونظريات العلم وهذا يشبه العصر العباسى فى اللغة العربية

وبعد أن تشتت اليهود على وجه البسيطة أصبحت لغة كل منهم توافق لغة البلد الذى حلوا فيه

فمن بقى منهم بالشام والعراق كانت لغته الآرامية «لغة اليهود المتأخرين» ومن ذهب إلي مصر أو اليونان كانت لغة اليونانية ومن ذهب إلي الجزيرة العربية كانت لغته العربية الفصحي كالسموءل ابن عاديا وشريح بن عمران وغيرهما

هذا ولما انتشرت اللغة العربية في مشارق الأرض ومغاربها

بانتشار الاسلام اتخذها اليهود لغتهم التخاطبية في جميع الاقطار وعكفوا على مدرستها وترجمة الكتب المقدسة اليها

وفى القرن العاشر أخذوا فى إحياء كتبهم ولغتهم العبرية ونقل كثير من الآداب العربية اليها حتى انتعشت اللغة واستجابت لهم. وها نحن أولاء نرى لهم كتبا وجرائد تصدر بلغتهم العبرية إلى يومنا هذا.

الفصل الرابع

الكتب الدينية

تتألف الكتب الدينية لدي اليهود من قسمين كبيرين: الكتاب المقدس وهو الموحى به على لسان موسى وغيره من الأنبياء ويقال له « مقرا » من كلمة قرا أي ما تجب قراءته (لاحظ التشابه بين هذا اللفظ ولفظ « قرآن »)، والتلمود وهو يتضمن الاحكام والسنن والتعاليم التى لم يرد ذكرها فى التوراة ومعناه التلمدة أى التعليم

العهد القديم

يتضمن هذا الكتاب تاريخ الاسرائيليين والقبائل المتصلة بهم وعاداتهم وشرائعهم وعقائدهم . . . وهو يعد أعظم أثر للغة العبرية من حيث أسلوبه وما تضمنه من الأحكام والعقائد وقد جمع هذا

الكتاب في أوقات مختلفة كما يتضح ذلك من لغته فبينا ترى شيئاً كثيرا من عهد البداوة القديمة إذا بك تجد فيه مدنية وحضارة فى قرونهم المتأخرة ولاسيما فى عهد أسرة « المكابيم » فى النصف الثاني من القرن الأول حيث تم فى عهدها تأليف هذا الكتاب باللغة العبرية،ثم ترجم إلى لغات العالم أجمع. وأقدم ترجمة هى الترجمة اليونانية فقد ذكر المؤرخون أن بطليموس ملك مصر طلب إلى اليهود أن يرسلوا أحبارا من عندهم ليترجموا الكتاب المقدس إلى اليونانية فأرسلوا اليه اثنين وسبعين حبرا من كل سبط ستة أحبار فجعلهم بطليموس زوجين زوجين وفصل بين كل اثنين ثم أمرهم جميعا بالترجمة فجمعت لديه ستة وثلاثون نسخة يونانية قابل بينها حتي اختار نسخة حفظت فى المتحف الاسكندري، ومن اليونانية ترجم إلى اللاتينية فى عهد الرومان ، ومن اللاتينية ترجم إلى جميع لغات أوربا الحالية.

ينقسم العهد القديم إلي ثلاثة كتب كبيرة متمايزة بعضها عن بعض،ويرمز لهذه الثلاثة بلفظ (تنخ) فالتاء الأولى من اللفظ تشير إلى التوراة وهي الكتاب الأول ، والنون تشير إلي الانبياء والكاف إلى المكتوبات

(١) فالتوراة وهى أهم كتاب تشريعى تحوي ما نزل على موسى عليه السلام من الشرائع والوصايا وهي تشمل خمسة أسفار: —

(أ) التكوين: وهو يتضمن قصصا شهيا عن حياة الانسان الأول ومبدأ الخليقة والتكوين، وتراه يذكر النظريات الفلسفية فى تحول العالم وتدرجه: من بناء السموات ودحو الأرضين، وانفجار الغمر، وخلق النور وكيفية انشاء البحار واليابسة، ثم وصف الايام الستة التي خلق فيها العالم وما كان يصنعه فى كل يوم حتى تم بناء الكون، ثم ينتقل بعد ذلك إلي حياة أدم وأولاده وتاريخهم ووصف حياتهم الاجتماعية إلي عهد ابراهيم، ثم يستفيض فى ذكر ابراهيم وحياته والبلاء الذى لحقه بالبلاد التى نزل بها، ثم يصف كيف انتقل العهد إلى اسحق ثم إلى يعقوب، ثم يصف لك حياة هذه الاسرة إلى أن انتقلت إلى بلاد مصر مع يوسف على أثر حادثته التى تجدها مفصلة واضحة هنالك.

هذا ولفظ «التكوين» إنما هو من وضع الترجمة اليونانية وليس موجوداً في النسخة الأصلية للتوراة.

(ب) سفر الخروج: وفيه حديث مسهب عن حياة الاسرائيليين فى بلاد مصر، وكيف كان الفراعنه يسومونهم سوء العذاب، وكيف نشأ موسى فى هذا العهد العصيب، وكيف كانت تربيته وحادثته مع فرعون والقبطي، ثم يصف خروج موسى إلى مدين واجتباء الرب إياه ليكون رسولا إلي فرعون وقومه أن علوا فى الارض واستكبروا فيها، ثم يصف تبليغ الدعوة إلى فرعون والمجادلات والمعجزات التسع وكيف احتال موسى علي بني اسرائيل حتى أخرجهم من مصر

وكيف التحق به فرعون وتجاموسى وغرق فرعون ومن معه، وكيف اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه، وكيف نزلت عليه الالواح المقدسة التي كانت تشمل الوصايا العشر الآتية (من الاصحاح العشرين من سفر الخروج) وهي أساس الشريعة اليهودية :

(١) أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخري أمامي

(٢) لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبد هن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ، وأصنع إحسانا إلي ألوف من محبي وحافظي وصاياى

(٣) لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا

(٤) اذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل ابوابك لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه

(٥) أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الارض التى

يعطيك الرب إلهك

(٦) لاتقتل (٧) لاتزن (٨) لاتسرق (٩) لاتشهد على قريبك شهادة زور (١٠) لاتشته بيت قريبك . لاتشته إمرأة قريبك ولاعبده ولا أمته ولا ثوره ولاحماره ولاشيئا مما لقريبك

(ج) اللاويين ويشمل العادات والوصايا والرسوم التي يتخذها الشعب فى الضحايا والقرابين

(د) العدد وهو يحتوى على وصف مسهب لحياة بنى اسرائيل فى التيه والنقباء (الاثنى عشر) ومراحلهم المختلفة فى البرية وكيف كان ينبجس الماء من الحجر على عدد أسباطهم، وكيف كان ينزل المن والسلوى .

ه) التثنية وتشمل التعاليم والنصائح والاحكام التي كان يرشد بها موسى قومه زيادة على مافي الصحف المنزلة وبهذا ينتهى ما نزل على موسى

(٢) الانبياء وهذا السفر قد دون كل ما فيه بعد تحضرهم وتمدينهم فى زمن ملوكهم الأول وهو يشمل قسمين أحدهما تاريخي محض وهو ذكر الملوك الذين تولوا حكم الشام إلى تشتت الاسرائيليين فى الاسر البابلي وأهم ملوك هذا العهد داود وسليمان وغيرهما والآخر أدبى محض يشمل على كلام الملوك وأمثالهم وحكمهم وتجاربهم

(٣) المكتوبات وهو الذخر الثمين الذى تعتز به اللغة العبرية وآدابها وهو يحتوى على تسابيح داود وتمجيداته للرب بأسلوبه

اللذيذ الذي ترى فيه ازدواجا وملاءمة تذكرك بجرس الشعر العربي وحسن موسيقاه كذلك يحتوى على أمثال سليمان بن داود وحكمه وتجاربه وكذلك يحتوى على تاريخ أيوب وما ابتلاه الله به ومن محاورة إبليس له ، ومجالسه الفلسفية العميقة مع أصحابه

هذا ويجمل بنا أن نذكر كلمة مجملة عن كتابي «الجامعة» (وأيوب) لاتصالهما الوثيق بآدابنا العربية واختلاف العلماء فيهما

الفصل الخامس

محمد صلى الله عليه وسلم فى التواراة والانجيل

ينص القرآن فى غير موضع من آياته أن محمدا صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل . . . ولكنه لم يبين لنا على أية صورة نجده أهو مذكور صراحة ؟ أو ضمنا ؟ ولهذا نحن نميل تصديقا للكتاب إلي أن « محمدا » ذكر ضمنا في ثنايا الكتب المقدسة القديمة واليك بعض هذه الأدلة نقلا عن رسالة أبى الربيع لقسطنطين ملك الروم كما وردت فى « عصر المأمون »

(١) سأقيم لهم من اخوتهم مثلك أجعل كلامى على فمه ، ولا يتكلم إلا بما آمره به) . . (أجعل كلامى على فمه كى يعني به . أمى لا يقرأ ولا يكتب) التثنية أصحاح (١٨) آية (١٥)

فمن إخوة بنى اسرائل الا بنو اسمعيل؟ ولو كان يعني واحدا

منهم لقال: (أقيم لكم نبيا منكم) . فان قلتم: إنما أراد بقوله «اخوتهم» أنفسهم فما تقولون فيما جاء في التوراة «مثل موسى في بني اسرائل لا يقوم» ؟

(ب) (جاء الله تبارك وتعالى من طور سينا ، وأشرف من ساعير ، واستبان واستعلن من جبال فاران . . .) ومعني ذلك أن الله أنزل التوراة علي موسى فى طور سيناء ، والانجيل على عيسى فى جبل ساعير وهو بالشام ، والقرآن على محمد فى جبال (فاران) وهى بلاد مكة (بنا موس أوصانا موسى ميراثا الجماعة (يعقوب). التثنية اصحاح (٣٣) آية (٢)

(ج) (أنصبت رحمة علي شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر . تقلد السيف على الأمم أيها الجبار بالقتل والاسر والسباء ... أقتحم أركب من أجل الحق والبر – تريك يمينك مخاوف . ذللت الاشياء سيفك ... ونبالك مسنونة فى قلب أعدائك . شعوب تحتك يسقطون) . مزامير اصحاح (٤٥) آية (٣)

فأي نبي كان على الأمم جبارا ، ولهم بأذن الله قتالا الا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

(د) (عبدي الذى وجب به حبي الذى بشرت به نفسى أفيض علية روحي يوصى الأمم بالوصايا لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، ويفتح العيون العور ، ويسمع الآذان الصم ويحيي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى غيره . (أحمد) يحمد الله حديثا تهليله يأتى من أقصى الأرض يجوز الماء بشدة أمواجه ... سكانها يحمدون

الله على كل شرف ويكبرونه علي كل رابية) . أشعيا أصحاح (٤٢) آية (١) ـ (١٠)

(هـ) (صدقوا الرب وسبحوا .. الذي هلله الصالحون . ليفرح اسرائيل بخالقه ، ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفي (له) أمته ، وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين بالكرامة . يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات عالية بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم الله من الامم الذين لا يعبدونه ، ثم يقيد ملوكهم بالقيود ، وأشرافهم بالاغلال) . المزامير اصحاح (١٤٩) آية (١)

فأيما أمة يكبرون الله بأصوات عالية ، وآذان الصلوات الدائمة ، وعلى كل شرف ، وعند كل حرب ، وأيما أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

و (جاء الله من السماء ، والقديس من جبال فاران ، وامتلأت السماء من تحميد (أحمد) وتقديسه ومسح الارض بيمينه وملك رقاب الأمم) (تضيء لنوره الارض ، وتحمل خيله فى البحر). حبقوق اصحاح (٣) آية (١٥)

فالى من ينحو هذا القول ، وإلى أين يذهب بهذا المعنى ؟ لئن ذهب به إلى غير من تحمل خليله في البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، وغلب على الارض .. لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون

(ز) (اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر) أى

كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام انسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تنسب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فانه نصب سنة موسى عليه السلام

سفر الجامعة

أما سفر الجامعة فيتحدث إليك فيه بطل من أبطال بني اسرائيل اعتزل الحكم والسلطان بعد تدخل اليونان والرومان في أمرهم، وكون لنفسه عقيدة وفلسفة ومذهبا فى هذه الحياة: بدأ يسخط على الانسان، ويقرر أن الشقاء الاكبر فى هذه الحياة إنما جاء من الناحية العاقلة التي جعلها الله الميزان الحساس لآلام الدنيا وشدائدها وينصح للذين أغوتهم الحياة الدنيا بزخارفها الا يركنوا إليها وألا ينبذوا التعاليم الدينية وراءهم ظهريا لأن هذا يرديهم وينزل بهم إلى حضيض الجهالة كما أنه ينصح للناس أن يستشعروا السعادة وإن لم يكونوا سعداء لانه فى تلك راحة القلب وسعادة الضمير

وتلمح بين ثنايا هذا الكتاب أنينا حارا وشكاة مرة من فساد الزمان والاخلاق، واستهتار الناس بالدين، وانكبابهم على الالحاد والزندقة وبعد أن أعيته الحيل رجع يقول للناس تمتعوا ما شئتم بالحياة من غير اسراف ولا تورط فى الشهوات

ويظهر أن اليهود كانوا منغمسين إذ ذاك في مجون اليونان وعبثهم فقام هذا الواعظ الشاك المتحير يبدي لونا من الفلسفة لم يكن للناس عهد بها من قبل وهي تفي مجملها تمثل عصره تمام التمثيل . .

سفر أيوب

يري بعض المؤرخين أن هذا السفر كتب في بلاد العرب اليمنيين في القرن العشرين قبل الميلاد، وكان منظوما شعرا كما نظمت الالياذة ثم ترجمه اليهود إلى العبرية نثراه وأدخلوه ضمن أسفارهم المقدسة ثم ضاع الأصل العربي كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسي. ويستدلون على ذلك بكثرة الاسماء العربية التي كانت مألوفة في عهد الجاهليين، والتي تلمس فيها رهبة الصحراء وجلالها، والتي هي أقرب إلى اللغة العربية وأوضاعها: أليس أيوب مشتقا من آب يئوب بمعني رجع ؟ وهذا معناه في اللسان العبري، ثم ابحث في شخصية أصحابه الذين أشركهم معه في محاوراته الفلسفية. أليس (اليفاز) التيماني من تيماء وهي ببلاد العرب ؟ وبلداد الشوحي وصوفر النعماني كذلك ؟ ثم هذه النظريات العامة الشاملة التي ماعهدناها إلا في العرب الجاهليين. على أن المحققين لا يرون هذا الرأي لوجود النظريات الفلسفة الدقيقة والتعاليم الدينية التي لم يكن للجاهليين عهد بها. ومهما يكن من شيء فهو فكرة عالية من المثل العليا التي تمثل الصراع بين الخير والشر، وبين الرذيلة والفضيلة. وبين

النفس الامارة بالسوء والنفس المطمئنة إلى ربها .

يمثل لك أيوب النبي الصالح الذي آتاه الله مالا كثيرا وأولادا هم متاع الحياة الدنيا وزينتها فاراد أبليس أن يصده عن سواء الصراط. فما زال به حتى أحفظ عليه قلب الرب فانتزع منه نعمة المال والبنين، وابتلاه بصنوف الألم والعذاب ما لم يسمع الناس بمثله ، وفى تلك الاثناء يأتيه ابليس ليغويه فهناك تسمع أيوب وحده فى وسط القمامات العفنة يناجي ربه بآهات هى ذوب الفؤاد وعصارة القلب، ويهم أن يميل مع الهوى فيظهر له رفقاؤه ويتناقشون معه فى الحياة وآلامها ومغزاها والخير والشر ، والسعادة واليأس، والعدل والظلم والثواب والعقاب واللذة والألم وهكذا ما كان يتقرب به العقل اليهودي في القرون القريبة للمسيح فى صلواتهم ودعواتهم بعد أن كانوا يتقربون إلى الله من طريق الشعور والاحساس وهكذا حتى انتهي إلى أن الانسان مهما ارتقي فليس بمستطيع ادراك كمال الله وفكرة الخير والشر فى هذه الحياة. وهذه النظرية هى من امهات النظريات الفلسفية الحديثة وقد اعتنقها غير واحد من الفلاسفة ولا سيما (ليبا نتس) الالمانى فى القرن السابع عشر

وقد ترجم هذا المغنى (جوتيه) الالمانى فى روايته الشهيرة (فاوست) على نسق محاورة أيوب مع ابليس واصحابه ...

التلمود

للامة اليهودية كما لغيرها من الامم عادات وتقاليد يرعاها الشعب ويحفظ لها من القداسة والاجلال كما يحفظ للكتب المقدسة، ويشبهون الأمة الانجليزية فى هذا حيث العادة والعرف تقوم لديهم مقام القوانين. ولم تكن تلك التقاليد مدونة مقروءة كباقى الكتب ولذلك اطلقوا عليها لفظ (الشريعة الشفوية) وتسمي (المشنا) وتتألف فى مجموعها من ستة أقسام: (١) الفلاحة ونظمها (٢) الاعياد والمواسم ومواقيتها (٣) الاحوال الشخصية للجنس من زواج وطلاق ونفقة (٤) العقوبات (٥) الذبائح والتقدمات (٦) الطهارة والنجاسة

وقد كثرت الشروح والفتاوى والاحكام حول التقاليد (المشنة) حتي تكون من كل ذلك (الجمرة) وهي تشبه مذاهب الفقهاء المستنبطة من الاحاديث النبوية عندنا

وكان بجانب ذلك كله حكايات وقصص يتناقلها الناس تندرا وتظارفا مثل الاقاصيص الدينية وغيرها

هذا ولما تعقدت الحياة الاجتماعية وكثر الاختلاف فى نصوص الكتب — قام العلماء من القرن الثانى إلى السادس للميلاد وهذبوا كل هذه الاشياء ووضعوها فى كتاب مستقل يبلغ حجمه حوالي العشرين مجلدا وأطلقوا عليه لفظ (التلمود) أي التلمذة والتعليم، وقد ترجم إلى معظم

لغات أوروبا حتى قال بعض علمائهم (لابد أن يأتى يوم يرى الناس فيه أن التلمود من أهم تأليف العالم ولا يمكن تقدير ما فيه من الكنوز..)

الفصل الخامس

اللغة العبرية واللغة العربيه

تشبه اللغة العبرية أختها العربية فى أمور كثيرة من مفرداتها وتراكيبها ودلالة ألفاظها وذلك أن اليهود لما تشتتوا فى الارض رحلوا إلي جهات عدة منها فرحل كثير منهم إلي شمالى الجزيرة العربية وبلاد العراق واليمن. وحيثما نزلوا لاتجدهم إلا أيادى عاملة لا يعرفون الكسل، ولا يرضون بالقليل من الدنيا فكانوا هم الزراع فى الجزيرة والعراق، وكانوا هم الصناع في يثرب وغيرها، وكانوا هم الدائبين على التبشير فى بلاد الجزيرة باليهودية حتى تهود كثير من القبائل العربية وبخاصة فى بلاد اليمن حيث انتشرت ديانتهم وفلسفتهم وأساطيرهم فى هذه الجزيرة الساذجة فصارفت منها قلبا خاليا فتمكنت فيه فنشأ عن هذا الامتزاج آثار في الآداب والديانة واللغة :—

(أ) الأثر اللغوى

عرفنا الأمة اليهودية قد انبثت فى أعطاف الجزيرة، وخالطت أهلها بالجوار والمصاهرة وتبادل المنافع. وطبيعى ألا يتم ذلك ولا يتهيأ إلا إذا كانت هناك وسائل للتفاهم ولا وسيلة غير هذه اللغة التي اختص

الله بها بني الانسان تيسيرا وارشادا ، فامتزجت اللغتان وتسربت المفردات في ثنايا كل منهما وزاد ذلك الامتزاج ما في طبيعة كل منهما من القرب والوضوح فصارت اللغتان أشبه ما تكونان بلهجتين مختلفتين للغة واحدة . زد على ذلك أن بعض القبائل العربية قد اعتنقت اليهودية وكان لزاما عليها أن تتخذ العبادة بهذه اللهجة المقدسة باللغة العبرية إذ لم يكن مستطاعا لديهم أن يعربوا المعاني الدينية أو يحرفوا الكلم عن مواضعه خشية أن يمرقوا من الدين ويلحدوا فيه فزخرت اللغة العربية بألفاظ اصطلاحيــة مثل الجنة وجهنم وابليس والطاغوت وتوراة وزبور . . . حتي القرآن نفسه قد أخــذ هذه الكلمات والتراكيب بأعيانها من اللغة العبرية لشيوعها عند العرب وسهولة معناها لديهم وبذلك أصبحت أخف مؤونة من الالفاظ الجديدة التي ما كانت تحتملها طبيعة اللغة ولا يسيغها العقل العربي الساذج وقتئذ

وإذا ما أردت أن تعرف مدى هذا التأثير فخذ أي كتاب بالعبرية واقرأه بامعان على رجل بصير باللغتين وأنت ترى مدى القرب في مادة اللغة وفي هيئة نطقها وفي ذوق تصاريفها واشتقاقاتها . . . تلك حقيقة قد فرغ الناس من بحثها فلا حاجة للاطالة فيها

(ب) الأثر الديني

لسنا الآن بصدد الشرح والتفصيل بين الديانتين اليهودية

والاسلامية . ولكن حسبنا أن نبين الصلات الموجودة فعلا بين التوراة والقرآن ومدى تأثيرها فى عقلية الأمة العربية

إذا نظرنا إلى الديانة الاسلامية وجدناها تشتمل على شيئين أساسين هما العقيدة والتشريع ويتبع ذلك آداب وقصص لها اهميتها فى صلاح المجموعة البشرية وكمال سعادتها

أما العقيدة وهى المحور الاساسى الذى تدور حوله علوم القرآن وآدابه وتشريعاته فهى عقيدة التوحيد الخالصة من شائبه الشرك على أكمل وجه وأنصع بيان . ونرى القرآن يحدثنا : أن ما يقال للرسول صلى الله عليه وسلم هو ما قيل للرسل من قبله من اتباع الدين القويم واخلاص العبادة لله وحده . وهذا موجود فى أول ديانة يشرحها لنا القرآن وهي ديانة اليهود . لهذا وجب على من أراد أن يطمئن قلبه بالايمان والتوحيد الحق الذى يبرأ من شائبة الشرك والالحاد ـ أن يدرس عقيدة التوحيد عند اليهود وما طرأ عليها من التقلبات والاحوال ليكون على بصيرة من دينه ويبرأ إلي الله بارضاء ضميره بالبحث والاستقراء

أترانا بعد أن حررنا القرآن من قيود التقليد والاستعباد الفكري وأطلق لنا عنان البحث الحر والنظر المستقيم ـ نؤمن بهذه الكتب قضية مسلمة من غير أن نبحث فى روحها وماتوارد عليها من النشوء والارتقاء ؟ أظن أن هذه الأمور من أبسط ما يجب على الرجل المستنير الذى يحترم نفسه .

وأما التشريع فقد ذكر لنا أمورا من تشريع اليهود وأعاده علينا بنصه ومعناه وحاجهم فى كثير من المحرمات والمحللات وأقام عليهم الحجة وكان جدال فى صدر الاسلام. كل ذلك قد حفظه لنا القرآن بلفظه ومناسباته أترانا بعد كل هذا نقف بعيدا عن المعركة ونقول كما قال اليهود « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ؟ كلا وإنما نقول « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون بأبحاثنا . . . » ؟

ومن جهة أخرى ما بالنا نرى علماء التشريع فى القرن العشرين وهم جبابرة العقول يدرسون القانون الرومانى القديم وهو على ما فيه من تشويه ونقص واضطراب وقلة خبرة لا يصلح أن يكون منهجا قويما فى حياتنا الحاضرة مع أن عالما واحدا يستطيع أن يأتي بأفضل منه معنى ومبنى وأدوم على الدهر ؟ ولكنهم يجيبونك أن البناء إن لم يكن على أساس متين فأوشك به أن ينهار فهم بدراسة القوانين القديمة يستطيعون أن يعرفوا حاجة الأمم وما تتطلبه من الفكر والتشريع، وما مبلغ العدالة وقداسة الحق لديهم، وما هو المحور الاساسى الذى يدور حوله التشريع كل هذه اسئلة ترد علينا فى التشريع الاسلامي وجوابها فى دراسة التوراة وشروحها إذ أنهما صنوان تفرعا من دوحة واحدة وسقيا بماء واحد . لا لنستعين بذلك على

حجية القرآن ولكن لنعلم أن القرآن لم ينجأنا بما هي العقول به
وفي القرآن قصص ومواعظ وتاريخ أتي بها على أخصر أسلوب وأجمع معني حماية لنكرة أو إشارة إلى موعظة أو زجرا عن قبيح أو استمالة لقلوب قد استغواها الشيطان أو استهواء لأفئدة قد طوح بها الهوى والغرور أو وعدا أو وعيدا ... والقرآن ملىء بأمثال هذا وهو يحثنا أن ننظر في آثار من سبقنا من الامم ونتدبر تلك القصص وهى موجودة في التوراة وشروحها تامة الحوادث متسقة التركيب مبينة للزمن والوقائع التي حدثت فيها، أفلا يكون هذا من أعظم الاشياء التي حثنا القرآن على النظر إليها والموعظة منها ؟

(ج) الاثر الادبي

الحكمة : هي جملة من القول مبنية على صدق الفراسة وقوة الخبرة ودقة البحث وصدق الدلالة ... وبديهى الا يتهيأ ذلك لأمة إلا إذا ماتشعبت حياتها وتعقدت مسالكها وهذبتها الحضارة ورفعتها المدنية إلى مستوى استنارت سبلها فيه بما ترقق من طباع جافية وتلين من قلوب جاسية وتقر من أحلام طافية فتخلص بصائرهم وتسمو ضمائرهم. ولدينا كتاب العرب قبل الاسلام وقبل أن يسترشدوا بنوره فاذا حياة ساذجة هادئة واذا نظرات سطحية لادقة فيها ولا بحث وإذا حضارة ومدنية لاقرار لها ولا ثبات فأني لهم هذا

المدد الفياض من الجمل الحكمية المأثورة عن حكمائهم؟ إذا بحثت عن تاريخ الجمل الحكمية في جاهلية العرب وجدت أن منبعها ومؤئلها شخص يدعونه «لقمان» حتي إنه ما من حكمة لا يعرف قائلها إلا وتنسب إليه فزخرت كتب الآداب والتاريخ بحكمه وآدابه وما نسب إلى غيره قليل لا يبلغ معشار ماأتي به هذا الرجل حتي لقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة خاصة من التنزيل تسمى سورة «لقمان»

ثم لعلك بعد ذلك تسأل من لقمان واضع الحكمة العربية؟ أهو عربي أم ماذا كان أصله؟ أما المتعصبون من العرب فينسبونه إليهم ويعزونه إلي قبيلة بعينها. وأما المنصفون من أهل التاريخ فيذكرون أنه رجل اسرائيلي أتي الحكمة وفصل الخطاب وعنه أخذ العرب بوساطة اليهود الذين انتشروا في الجزيرة العربية بآدابهم وعلومهم ودياناتهم لموافقة الحكمة لطبيعة العربي: لقلة ألفاظها ورونق عباراتها ولديك العهد القديم فارجع اليه لتعرف صدق هذا.

المثل

هو جملة من القول تنتزع من حادثة واقعية أو خرافية لتقال فيما يشبهها من الحوادث فتكسبه جمالا في القول وخفة في الأسلوب ورواء وحدة في الذهن وانتباها. والعرب وإن أكثروا من الامثال لموافقتها لهوائهم وذوقهم إلا أنا نلمح في أمثالهم تشابها كبيرا لأمثال

العبرانيين حتي إن كثيرا من ذلك ينسب إلى أشخاص اسرائيليين كأمثال سليمان وأمثال لقمان التى جمعت فى سفر خاص

الشعر

لانستطيع أن نبحث هذا الجزء من جهة أوزانه وأساليبه وإنما الذي يعنينا هو أننا قد عرفنا اثار الصحراء وطبيعة الحياة الاجتماعية هنالك ومقدار تأثرهم بذلك فما بالنا نرى لونا جديدا فى شعر عدى ابن زيد العبادي وأمية بن أبي الصلت والسموءل بن عاديا وغيرهم من شعراء المعانى الدينية . أمن حياتهم ذلك أم من وثنياتهم ؟ لانستطيع أن نعطى حكما خاصا إلا أن يكون قد غذى هذا العقل بعقيدة جديدة مسيطرة على العالم ولا نرى أثرا للديانات فى جزيرة العرب قبل ديانة اليهود . . . . . .

فاذا ما أردت أن تدرس شاعراً من هؤلاء أتستطيع أن تفهمه تماما دون أن تعرف هذه النظريات التى كان يتحدث عنها من منبعها الأصلى الذي استفاضت منه ؟

الباب السادس

الآرامية ـ السريانية

الفصل الاول

الآراميون

نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد رحلت قبائل متوحشة بدوية غلاظ الأكباد عماليق الأجسام لا يعرفون نظاما ولا مدنية ولا يرجون تآلفا ولا اتحادا ضاقت بهم سبل الحياة فى جزيرة العرب وعضتهم الصحراء بأنيابها ففروا هاربين لا يلوون على شىء ولا يأتون أقليما إلا أو سعوه تخريبا وتدميرا فما زالوا يهلكون الحرث والنسل كالعواصف المزعجة حتي أتوا ريف العراق وخصب الشام فوجدوا هناك مرتعا خصيبا ونضارة ما كانوا ليحلموا بها فى صحرائهم فانقسموا فريقين كبيرين يتداولون هذه الغنائم الباردة والطعمة السائغة فرحلت الفرقة الأولى إلى شمالى السواحل السورية وشرقيها وانتقصوا الكنعانيين من أطرافهم وحلوا بلادهم ضيفا ثقيلا وحملا جسيما فتنا ومتهم الدولة الكنعانية ولكن هيهات أن تظفر منهم بطائل وقد كانوا قوما همجا لا نظام لهم ولا وحدة عامة فما زالت الايام بين هؤلاء الاعراب المتوحشين وبين الكنعانيين والعبرانيين تتداول حتى قر أمرهم بالقوة

والغلبة وأسسوا دويلات صغيرة كانت شراً مستطيرا على أهل البلاد وأهم هذه الدويلات هي آرام دمشق وآرام صوبا فى أرض حران وآرام بيت رحوب على ضفاف اليرموك وآرام معخا فى جبل الحرمون

وأما الفريق الذى ذهب إلى جنوب العراق فقد ثبتت أقدامهم هناك لأن ملوك آشور كانوا فى شر مستطير مع الحيثيين الذين هم غيلان آسيا الوسطى فتدخلوا فى شئون البلاد وامتزجوا بهم وتأثروا بحياتهم ونظمهم وعقلياتهم هذه الطوائف جميعها كانت تسمي الآرامية

لهذا نرى أن اللغة الآرامية كانت في جزيرة العرب « مهدها الأصلى » ثم نزحت كما نزح أخواتها إلى الشام وتفرعت فرعين كبيرين

فرعا ذهب إلي الغرب فى بلاد الشام ، والآخر ذهب إلى الشرق فى بلاد العراق

فالذى ذهب إلى الشام تفرعت عنه اللغات الآتية :ــ
(١) لغة اليهود المتأخرين (٢) لغة أهل تدمر (٣) لغة النبط (٤) لغة السامريين

والذى ذهب إلي العراق تفرعت عنه اللغتان الآتيتان :ــ

(١) لغة اليهود فى بابل (٢) اللغة السريانية .

الفصل الثانى

(لغات العرب المتفرعة من الآرامية)

(أ) لغة اليهود المتأخرين

تداخلت هذه اللغة الآرامية فى اللغات الغربية من بلاد الشام وخاصة العبرية إلى حد كبير حتى إنك لتجد فى بعض العصور القريبة من الميلاد أن اليهود كانوا ينطقونها فى معاملاتهم وتآليفهم ورسائلهم ونجد لذلك آثارا فى الكتاب المقدس مثل سفر « أرميا » وغيره كما أنهم ترجموا الكتاب المقدس إلى هذه اللغة ليستطيع الجمهور أن يقف على جوهر التعاليم الدينية باللغة التى يفهمها ، وقد وضع كذلك جزء كبير من التلمود بها

(ب) لغة تدمر

وفى الجزء الشرقى الجنوبى من بلاد دمشق فى البرية بين حمص والفرات . كانت هناك دولة قوية مهيبة الجانب ذات حضارة ومدنية عظيمة يرجع تاريخها وأصلها إلى أعراب آرام تلك الدولة هي الدولة (التدمرية ذات الشهرة الفائقة فى القرون القريبة من الميلاد حيث أصبحت مضرب الامثال فى الجمال والقوة ، ومنبع الخيال فى الأقاصيص والخرافات التى نسجت حول هذه الدولة الفتية الزاهرة

فمن ذلك أنهم زعموا أن الجن هي التي بنتها على عمد من الرخام بأمر سليمان بن دواد . لأن العقل العربي إذا مابهره شيء وأخذ عليه حواسه نسبه إلى الجن ، قال النابغة الذبياني :ـ

ولا أري فاعلا فى الناس يشبهه * ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الأله له * قم فى البرية فأحددها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

حيث كانت مركزا هاما للتجارة الدولية البرية لوقوعها بين أكبر دولتين عرفهما التاريخ هما فارس شرقا والروم غربا وكان اليونان والرومان يخافون أمرها ويرهبون جانبها ويرسلون إليها الهدايا والنفائس وآخر ملوك هذه الدولة هي (الزباء) أو زانو بيا صاحبة الحديث الذي ينسب اليها مع جزيمة الأبرش وقصير وغيرهما مما أفعمت به كتب الادب والتاريخ وشهرة هذه الدولة ترجع إلي الآثار القديمة والنقوش الكثيرة التي خلفها التدمريون علي معابدهم وهيا كلهم فمن ذلك أنهم كانوا ينقشون صورة الميت علي القبر ، وقد رأي أوس بن ثعلبة صورة فتاتين على قبر فقال :

فتاتي أهل تدمر خبراني * ألما تسأما طول المقام
قيا مكما علي غير الحشايا * على جبل أصم من الرخام

وقال محمد بن الحاجب :

أتدمر صورتاك هما لقلبي * غرام ليس يشبهه غرام

ويؤخذ من دراسة هذه الآثار أنها كانت بيزنطية يونانية الصبغة ؛ وأن لغتها فيها مفردات كثيرة من اللغة اليونانية والرومانية، والجزء الأكبر فيها من اللهجة الآرامية

وهي في مجموعها لا تخرج عن دولة كانت لها صلة خاصة باليونان والرومان أيام عزها ومجدها. ومازالت حافظة مكانتها بين الامم المتمدنة الراقية حتى قضى على ملكها في القرن الثالث الميلادي؛ واندمج الاهالي في العرب النازحين من سد مأرب في الجهات الشمالية والشرقية من الجزيرة العربية

(ج) لغة النبط

وهناك أمة لا تقل عن الامة التدمرية في سلطانها ونفوذها واتصالها بالعرب الجاهليين خاصة والشاميين عامة تلك هي الامة (النبطية) ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب والافرنج، وما وجد من الآثار في بلاد الحجاز وجنوب فلسطين وطور سينا أن لغتهم كانت قريبة الشبه جدا بالآرامية إلا أنها قد دخلتها مفردات وأسماء عربية صدفة كأسماء الاعلام والقبائل والاشياء الحسية، وكانوا يكتبون اللغة بالخط الآرامي المستعمل لديهم للمكاتبات ، وإن كانت لغتهم هي العربية القديمة ، لان الكتابة العربية لم تكن وجدت بعد في الامة العربية. كما يفعل أهل النوبة الآن : يتحدثون بالنوبية ويكتبون بالعربية

وكانت أهم مواطنهم صحراء سيناء في جنوب فلسطين وعاصمتها (سلع) وهي لاتزال أطلالا ماثلة إلى الآن، وما زال النبط مختلفون إلى العرب حتى جاء الاسلام وهم يرتضخون لكنة كان يأنفها العرب الخلص ويهجنون من ينطق بها. وكتب الآداب العربية مليئة بذلك

هذا وقد دخلت مملكتهم في حوزة الرومان سنة ١٠٥ م كما دخلت أختها تدمر بعد ذلك.

(د) لغة السامريين

هم قوم من الاعراب أسكنهم الأشوريون مدينة (سامرة) بعد أن خربوها واجلوا اليهود عنها، وهي قرية من نابلس، وقد إعتنقوا اليهودية، واستقلوا عن الأحبار في القدس، ورفضوا كل التعاليم اليهودية ما عدا التوراة فقط، وترجموها إلي لغتهم التي لاتزال عربية تشوبها ألفاظ آرامية.

الفصل الثالث

لغات العراق (الآرامية)

أما الفرق التي ذهبت إلي العراق فانقسمت فريقين كبيرين كانا على أهمية كبيرة من حيث الآداب والاعتقادات فالقسم الجنوبي ذهب إلي أرض بابل واختلط باليهود هناك وكون له فلسفة ولغة تقترب

من اللغة العبرية الغربية وأسسوا هناك مدرسة فلسفية علمية دينية وأهم ما دون بتلك اللغة العبرية في هذه المدرسة كتاب التلمود وهو شرح كبير يحوى كل خرافات الاسرائيليين وأساطيرهم ومعارفهم، وكان تأثيره عجيبا فى عقلية اليهود المتأخرين ولاسيما من بقي منهم على اليهودية ولم يدخل فى الديانة المسيحية التي كانت منتشرة وقتئذ فى تلك البلاد وقد دخل شيء كثير من تعاليمه وخرافاته في الديانة الاسلامية في العصر الاول بعد أن اسلم اليهود وخاصة الأحبار منهم مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سبأ وغيرهما فكان هؤلاء الاحبار المسلمون يدخلون هذه التعاليم ولاسيما ما يتعلق منها بمبدأ الخليقة، والدار الآخرة فينقلها عنهم الرواة والمحدثون من غير بحث ولا تدقيق سذاجة من الناقلين وإكبارا للقائلين أن يدخلوا في الدين ما ليس منه، وهكذا تسربت هذه الاساطير إلى الاسلام كما نجده مستفيضا فى تفسير الخازن وغيره.

وأما الفرقة الثانية فقد رحلت إلى شمالى الجزيرة وحطت رحالها في مقاطعة الرهاء وأدوسا وحران واعتنقت الديانة المسيحية وأطلقت على نفسها لفظ (السريان) أي الارامبين المسيحيين تمييزا لهم عن الآرامبين الوثنيين الذين كانوا يأنفون من الانتساب إليهم فعكف هؤلاء السريان على دراسة كتب اليونان وآدابهم وفلسفتهم التي كانت مستفيضة في الشرق إذ ذاك، وساعدهم على ذلك وجود علماء اليونان الذين كانوا يفرون خوفا من ظلم الرومان واضطهادهم فتبحر هؤلاء

السريان في العلوم اليونانية ونقلوا كل ذلك إلي لغتهم لاتصالهم المباشر باليونان كما نقلوا كل الكتب المقدسة اليهودية إلي السريانية فاصبحت السريانية في ذلك الوقت أغنى لغة سامية من حيث الحضارة والمدنية والعلوم والدين والفلسفة فكانت بذلك مهداخصيبا لظهور المسيحية وتقبل دعوتها وظهورها بمظهرها الروحي اللذيذ

ويقسم التاريخ العلمي للسريان قسمين : يمتد احدهما إلي ظهور الاسلام بالعراق ، والآخر إلي فنائهم بنكبة التتار . اما الجزء الأول من حياتهم فقد نقلت إليهم الفلسفة اليونانية ، والديانة الاسرائيلية والتعاليم المسيحية ، فأرادوا أن يوفقوا بين هذه المعلومات والتعاليم الدينية فكانت مدينة الاسكندرية على مايذكر المؤرخون (هي واسطة الاتصال بين ديانات الشرق والهامه وأساطيره وبين بحث الغرب وعلومهم ، وآدابهم فانتج هذا الاتصال نوعا من التفكير هو نتيجة هذا التفاعل الذي سارت على ضوئه النظريات العلمية إلي قبيل النهضة .)

الفصل الرابع

آثار السريان اللغوية والدينية

اعتمد السريان في أبحاثهم ومعارفهم على جهتين رئيسين من علوم اليونان هما المنطق والاخلاق ، وكانت قبلتهم في المنطق كتب آرسطو التي عكفوا على دراستها وتلخيصها دراسة مستوفاة عميقة كان من

نتائجها ظهور هذه المذاهب الدينية المختلفة ، وتلك القواعد النحوية والصرفية التي اخترعوها وكانت وجهتهم في الاخلاق إلى (الفيثاغورسيه) الجديدة ، والافلاطونية الحديثة التي كانت منتشرة في أيامهم ولاسيما في مدينة الاسكندرية ، وكان من آثارها ظهور هذا اللون الرائع من الفلسفة والتصوف والرهبنة التي اصطبغت بها المسيحية في عصورها الأولى والتي سرى منها الشيء الكثير إلى علماء الاسلام في القرنين الأولين

والذي يهمنا هو أن نذكر آثارهم في اللغة وقواعدها لأن علماء اللغة العربية قد حذوا حذوهم في كل ما عملوه وترسموا خطاهم في منهجهم الذي ابتكروه

آثارهم في اللغة السريانية

(ا) الحركات

قدمنا أن الخط الفينيقي هو الذي ساد في جميع ممالك الأرض على اختلاف أجناسها ، وأخذته كل أمة فعدلت في أوضاعه بما يتفق وابجديتها وحروفها ، وكانت خالية من علامات الحركات

فاليونان لما أخذوا الخط الفينيقي وجدوا به أحرفا ليست لها أصوات في لغتهم ، وهي الأحرف الحلقية التي من خصائص اللغات السامية ، كما أنهم وجدوها خالية من علامات الحركات ، فاستطاعوا

بقوة ابحاثهم أن يحولوا أحرف الحلق التي لاداعي إليها إلى حروف صوتية تدل على الحركات التى ليس لهم غناء عنها ، فمثلا حولوا الحاء وجعلوها E لقرب المخرج فى النطق وحولوا العين وجعلوها O وهكذا

أما السريان فكانوا يكتبون الخط الفينيقي من غير علامات الحركات أولا كما نجده واضحا فى الخط (الاستر انجيلى) ولكنهم لما ترجموا الكتب المقدسة إلى لغتهم بعد أن اعتنقوا الديانة المسيحية خافوا أن يخطئوا فى تلاوة الاناجيل فيؤدى ذلك إلي تحريف الكلم عن مواضعه فاخترعوا النقط للدلالة على الحركات فمثلا : النقطة فوق الحرف تدل علي الفتحة ، وتحته تدل على الكسرة ، ووسطة تدل على الضمة ، والعالم بتاريخ (الشكل والاعجام) في اللغة العربية يراها سارت فى هذا السبيل ونقلت كل مصطلحات السريان فى لغتهم ولدينا من آثار هذا العهد مصاحف مشكولة بالنقط إلي أن جاء الخليل بن احمد الفراهيدى فأدخل الحركات المعروفة الآن

(ب) قواعد اللغة

كذلك السريان كانوا واسطة فى نقل قواعد اللغة من نحو وصرف إلى اللغة العربية من علوم اليونان فى المنطق . وذلك أن (آرسطو) قسم الكلمة إلي اسم ، وفعل ، وحرف . وقال : إن كل شيء مخلوق لابد أن يكون فى زمان ومكان معينين يكونان بمثابة ظرف له ولذلك سمي

لذلك المفعول فيه ظرفا ، كذلك قال : إن الكلام هو تركيب كلمات تفيد معني ، وهو الذي نعرفه في العربية الآن كذلك لديهم أن الصرف هو تحويل حرف في آخر الكلمة إلي حرف آخر . . . فاخذ السريان كل ذلك وهذبوه ثم نقل إلى اللغة العربية

المذاهب الدينية

علمنا مما سبق أن العلوم اليونانية نقلت إلى الشرق على يد السريان ثم ترجمت جميعها إلى اللغة السريانية ، وأن الطوائف المسيحية الكبرى كانت في ثلاثة مراكز : النساطرة في الشرق (العراق) واليعاقبه في الغرب (الشام ونجران والحبشة) ، والملكانية وهي الكنيسة العامة

وأهم المناقشات التي فرقت دينهم وجعلتهم شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ـ هي (طبيعة الاله والمسيح) فاليعاقبة قررت أنهما مظهران لنور واحد ، وصنوان لدوحة واحدة ، وقد اجتمعا في شخص المسيح عليه السلام ، والنساطرة أبت أن تعترف بهذا وصرحت أنهما مختلفتان يستحيل الجمع بينهما ، والكنيسة العامة ارادت أن توفق بين الرأيين فقررت أنهما مختلفتان ولكنه يمكن أن يجتمعا في شيء واحد .

ونشأ عن هذا الاختلاف شيء آخر هو : هل الفعل والارادة الالهيان متفقان مع الفعل والارادة الانسانيين أو مختلفان ؟ فاليعاقبة وحدوا بينهما ، والنساطرة فرقوا ، والكنيسة العامة وفقت

هذا والناظر في تاريخ الفرق الاسلامية يدرك إلي أي حد

تأثر المسلمون بهذه المذاهب المختلفة فى عقائدهم التي تكاد تكون صورة واضحة فى الفرق الاسلامية الكبرى فالمعتزلة يشبهون النساطرة في نزعاتهم الفكرية الحرة ، والأشعريون (السنية) يشبهون اليعاقبة فى المحافظة علي نصوص الكتب المقدسة وآثار السلف الصالح ، والماتريديون يشبهون أصحاب الكنيسة العامة فى التوفيق بين الطرفين وانتهاج السبيل الوسط وإذا كان العراق هو القطر الشقيق لجزيرة العرب تربطهم وإياها أواصر الجوار ، والمصالح الاجتماعية ـ أدركنا السبب فى أن مذهب النساطرة هو الذى كان سائدا بين المسلمين عامة والمعتزلة خاصة فى القرنين الاولين للهجرة

وكانت هذه الفرق تتجادل وتؤيد مذاهبها بالكتب المؤلفة فى مناحى العلوم والبراهين بهذه اللغة السريانية فزخرت اللغة بهذا الكنز الذي يعد أعظم كنز عرفته أمة سامية إلى الآن. هذه المناقشات لم تكن تصدر الا من أساطين النساطرة، وفطاحل اليعاقبة ورهبانها وأهم ما أثر عن هذه المعارك الفكرية هو كتب الدين ، واللغه ، والأدب ، والتاريخ ، وتراجم القسيسين والرهبان ... مما نقل أكثره الي العربية فى القرن الثاني ، وعلي دراسته تخرج أقطاب العرب فى الفلسفة والعلم والدين ولما أدال الله للمسلمين من بلاد العراق والشام دخل كثير من هؤلاء النصاري فى الاسلام وتكونت منهم طبقة التابعين التي كان لها ولمن أتى بعدها أكبر الأثر فى مدنية الاسلام.

الباب السابع

اللغة الحبشية

لعل من أمتع الابحاث التي يستلذها الانسان فى بحثه عن اللغات السامية ـ هذا الحديث الشهي عن اللغة الحبشية وتاريخها وأطوارها

وظني أن السبب فى ذلك يرجع إلى هذا العهد القصير الذي تمت فيه معلوماتنا عن هذه الدولة العظيمة . فان للآثار المشاهدة لدى النفس وقرب تاريخها ما يجعلها حلوة المذاق خفيفة المئونة . زد على ذلك أن هذه اللغة الحبشية التى سنتحدث عنها هي الضالة المنشودة في حلقات اللغات السامية عامة والعربية خاصة أو بعبارة أصح هى نقطة الاتصال بين ماضينا المجيد وحاضرنا الباهر القوي من حيث اللغة والآداب

ولكنها على ما فيها من قرب الصلة ومتانة التركيب والمحافظة على الأوضاع السامية ـ ترينا كيف يتأثر الانسان بالمخالطة والجوار والعقيدة والأدب حتي يصبح جنسا غير جنسه الأصلى وتركيبا عجيبا لا يتلاءم مع مزاجه وقوته الأولى الغريزية

للتاريخ الحبشى صبغة خاصة تميزه عن سائر التواريخ القديمة وإن كانت ذات حضارة ومدنية قديمة قلما تتاح لاخواتها الساميات ساكنات الصحارى والقفار ـ تلك الصبغة هي انقطاع أخباره قبل الميلاد. فان أحدا من المؤرخين لا يزعم أنه يعرف من أمر تلكم البلاد

شيئا على التحقيق إلا أن أمة (الآغو) الحامية كانت منتشرة فيها على غير نظام

ولـكننا إذا أخذنا بالفرض والمقايسة وجارينا علماء الطبيعة والجغرافيا فى هذا المبحث فانا نقول : إن هذه البلاد الحبشية كانت متصلة يوما ما بالبلاد اليمنية وكانت خاضعة لملوك اليمن وأقياله

ولما طغي البحر وانفصلت هذه البلاد أصبح لأهلها صبغة خاصة ومميزات تبعدهم كثيرا عن أصلهم السامي القوى، وفى الوقت نفسه تحفظ لهم خصائص لغتهم العامة وقواعدهم الثابتة

وما حدا العلماء إلى تقرير هذه الحقيقة إلا أنهم وجدوا اللغات السائدة في بلاد الحبشة واللهجات المفرعة عنها إنما ترجع إلى خصائص اللغات السامية فى استقامتها وتصرفاتها وتراكيبها وكثير من مفرداتها وخطوطها

وعرف هؤلاء الساميون الذين قطنوا تلـكم الجهات وتولوا أمرها والسيادة فيها (بالجعزيين) أي الأقوام الاحرار الأماجد . ويالها من تسمية ولقب يحمل بن عطفية مخايل الشرف ونبالة المحتد! فكانت لغتهم تسمى (الجعزية) وكانت تستعمل فى الدواوين الرسمية والرسائل والتأليف والطقوس الدينية وكل مظاهر الحياة الأدبية

وظلت هذه البلاد الخصبة الرائعة بعيدة عن الناس حتي هبط إليها قوم من اليهود حوالي القرن الأول قبـل الميـلاد ، ويختلف

المؤرخون اختلافا شاقا فى السبب الذي حمل اليهود إلى تلك البلاد والسبيل التي سلكوها فى ذلك

والمعقول أنهم فروا من وجه الرومان بعد نكبة فلسطين، وتخريب معابدهم وتشتيتهم فى طول البلاد وعرضها فنزلوا هذه البلاد عن طريق اليمن وأخذوا يبشرون باليهودية بين طبقات الشعب حتى تهود كثير منهم ولا تزال لهم بقية باقية إلى الآن وتعرف باسم (الفلاشة)

وأعظم أثر لليهود فى تاريخ هذه البلاد الحية هو أنهم ترجموا التوراة إلى اللغة الجعزية وكتبوها بحروفها « السبأية » المعروفة وأدخلوا بطبيعة الحال ألفاظا كثيرة من العبرية الآرامية واليونانية فأثرت هذه الترجمات فى ثقافة الشعب وخلقت نوعا جديدا من التفكير والبحث والمعرفة لم تكن قبل فأحدث ذلك للغة الجعزية ثروة دينية راقية وعلوما وضعية مهذبة وبذلك مهدت السبيل العقلية لدى الحبشان أن يتقبلوا المسيحية التى جاءت إلى تلك البلاد حوالى القرن الرابع الميلادي فرسخت أقدامها وبسقت فروعها وآتت أكلها كل حين فى هذه البلاد ولعبت دورا هاما فى المناظرات والمجادلات الدينيه والسياسية أن كانت مرتع أساطين اليعاقبة

ويرجع السبب الحقيقي لدخول المسيحية هذه البلاد إلي السياسة والاستعمار أكثر مما يرجع إلى الدين والتبشير به وهكذا النصرانية وأمها لا تستطيع أن تفرق بين الاستعمار والدين فالسيف فى اليد اليمنى

والانجيل فى اليسرى وكثيرا ما يمهد الانجيل وتفاسير العقول لقبول الذل والخضوع والرضا بالدون فيقع الشعب فريسة الاستعمار المشين وهو ما نراه من أمم الغرب اليوم ولاسيما الممالك اللاتينيين منها

وذلك أن قسطنطين الروم قد أرسل بعثات متتالية لاتفتر فى سبيل التبشير بالدين الجديد في ظاهر الامر ولكنها تخفى الحقيقة الاستعمارية تحت ثوب من الرياء قلما يثبت أمام الحق الواقع، وتذرعوا فى سبيل ذلك بالمجاملات السياسية والتزلف بأنواع الهدايا النفيسة حتى كللت مساعيهم بالنجاح التام ووقعت اليمن وضواحيها فى قبضتهم وهم لايشعرون

ومن هذا الوقت بدءوا يتدخلون فى بلاد الحبشة ويدعون الناس إلى الدين الجديد فوجدوا منهم آذانا صاغية وقلوبا لم تتقسمها الاهواء بعد فتمكنت الديانة الجديدة وملكت على الناس كل مشاعرهم وأصبحت قانون الجماعة ودستور الحكومة وهذا هو السر الذي يفسر لنا اتصال الدين بالحكومة الحبشية اتصالا متينا حتى إنك لاتستطيع أن تميز الملك وأعماله من القسس والرهبان ووظائفهم وبذلك الفتح الروحاني اكتسب المسيحيون الرومان شبه امتياز أدبي أنشأوا بسببه يغيرون من أوضاع البلاد ويتدخلون فى شئونها السياسية الخارجية حتي فطن أهل اليمن إلي نواياهم الخبيثة فأنزلوا بمستعمراتهم الوادعة المطمئنة التى لم تبد شغبا ولم تظهر خلافا ـ أنزلوا بهم العذاب

والتقتيل على عهد ذى نواس ملك اليمن وهكذا...سنة الله فى خلقه « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وهذه هي قصة (أصحاب الأخدود . . .التي ورد ذكرها فى القرا ن)

وعند مارسخت أقدام المسيحية فى بلادالحبشة أخذوا يترجمون الأناجيل إلي لغة البلاد وهي (الجعزية) واستطاعوا أن يدخلوا كثيرا من المصطلحات الدينية والعلمية وألفاظا كثيرة من السريانية واليونانية

فتصور بعد كل هذا حالة اللغه وقد ترجمت اليها التوراة بما فيها من حكم وأمثال وتشريعات وتاريخ وفلسفة روحية وكذلك الاناجيل وشروحها ماذا يكون حالها ؟

ولم تزل هذه اللغة قائمة بمهام الدولة والحياة الاجتماعية بكل مظاهرها تستمد قوتها وبقاءها من الاسرة الحاكمة السامية التي كانت تتعصب لها أشد التعصب إلى أن عزلت هذه الاسرة وأسست أسرة جديدة من القبائل (الاجارية) التى هى قنطرة بين الساميين والحاميين حوالي القرن الثالث عشر . وبذلك أخذت اللغة الجعزية تتضاءل شيئا فشيئا إلي أن اختفت من عالم التأليف والتدوين والمحادثة على أطوار سنفصلها بعد مقارنتها باللغة العربية القديمة وتدرج الخطوط التي كانت مستعملة بهذه اللغة المقدسه

اللغة وأطوارها

تدل الآثار الصحيحة أن اللغة الجعزية كانت متصلة بلغة (سبأ) فى اليمن فى قرون طويلة حيث وجدت نقوش تدل على اسم ملك كان يملك اليمن وحضرموت والحبشة وغيرها ، وأن هذه القبائل السامية الموجودة ببلاد الحبشة قد اختلطت بالحاميين (آغو- الكوشيين) ودام الصراع بينهم حقبة من الزمن كانت الغلبة فى نهايتها للساميين...

وظهرت اللغة الجعزية على باقى اللغات واللهجات الحاميه واحتلت مركزا فى البلاد إلي القرن الثالث عشر الميلادى

واللغة الجعزية فى تركيبها واشتقاقاتها ونوع تصاريفها تشبه اللغة العربية ولاسيما اللغة اليمنية قديما ، وتمتاز الحبشة أنها حافظت علي أوضاع قديمة للغة السامية الأولى لم تحفظها لغة غيرها

ومع هذا النسب بين اللغات السامية فاننا نلحظ فوارق بين اللغة الجعزية والعربية تتلخص فيما يأتى :-

(ا) أن أداة التعريف لم تظهر فى الجعزية (مثل السبئية والحميرية) ولاشك أنها من الخصائص التي تدل علي حضارة اللغـة ورقيها . وبعض اللغات السامية تختلف فى ذلك اختلافا كبيرا على حسب درجاتها من الرقى والحضارة اللغوية واللسانية ، فبعضها يخلو من أداة التعريف كالجعزيه هذه « والآرامية المتأخرة » وفي العبرى هى حرف

(ها) وفى آخر الكلمة من اللغة السريانية توضع حرف (آ) للدلالة على التعريف أحيانا

واختلاف اللغات السامية في أداة التعريف يدلنا على أن اللغة الأصلية كانت خالية منها وهذه الزيادات لحرف التعريف إنما جاءت متأخرة لتحضر اللغة ورقيها

(ب) وكذلك لا تميز فى الجعزية بين المذكر والمؤنث والمثنى والجمع وتلك ميزة من خصائص اللغة بعد رقيها. ألا تري أن العبرية لا تسير على قاعدة فى تعرف المذكر والمؤنث ولا بين المثني والجمع إلا فى ألفاظ محدودة طبيعية فى التثنية بذاتها كاليدين والرجلين . ؟

وأنظر إلى العربية وقد قطعت شوطا محمودا فى المدنية والتهذيب اللغوي ألا تراها تحن إلى أصلها البدوى وتسير سيرا معكوسا مضطربا فى تميز الأعداد ونحوها فتضع اللفظ المؤنث لمميز مذكر وبالعكس . فهذا وشبهه يدل على خلو الجدة العليا للغات السامية من أداة التعريف والتمييز بين المذكر والمؤنث والجمع وغيره

(ج) نجد فى الجعزية ألفاظا من الحامية وذلك بطبيعة الحياة الاجتماعية فى تلك البلاد إلا أنها لانحاطها لا تعدو ألفاظا معدودة كبعض الألفاظ الكوشية القديمة الصرفة إلا أن القسط الأوفر من الألفاظ الدخلية على الجعزية راجع إلى اليونانية والسريانية والعبرية لتأثر الحبشان بالديانتين الاسرائيلية المسيحية والترجمات

المختلفة لكتب الدين التي كانت تحوى شيئا كثيرا من هذا

لهذا نجد آثار الاحباش القدماء مدونة في بطون الكتب باللغة الجعزية التى كان لها السلطان على البلاد إلي حوالي القرن الثالث عشر

الخطوط الجعزية

أما الخط والكتابة الجعزية فانها أخذت شكلا خاصا تدرجت فيه من غرارة الطفولة والتقليد إلى مرتبه الاستقلال ، وذلك فى ثلاثة أطوار طبيعية ، وفي كل دور آثار تدل عليه وتنبئنا بتدرجه وانتقاله : —

(ا) من خصائص الجعـزية الأولي أنها لاترسم الحركات بحروف ، وبعبارة أوضح كانت تعتمد فى خطوطها على الحروف التي تبني منها الكلمة فقط ولاتعنى بكتابة حركات الاصوات المختلفة من فتحة و ... والفرق ظاهر بين الطريقتين وذلك أن الحروف ثابتة لاتتغير على حين تجد الحركات تختلف من لون الى آخر فمن مد إلى قصر إلى غير ذلك

وهذا الدور في مجموعه هوالخط اليمني القديم الذي كان شائعا إذذاك

(ب) أما وقد تحضرت اللغة وارتقت الافكار وتهذب المنطق فمن الطبيعى أن أهلها يضطرون إلى وضع حركات علي الحروف التي يشتبه فى نطقها أو تكون عرضه للتأويلات وهذاهو الحاصل فى اللغات

السامية الآن فاننا نشكل الحروف ونعجمها خشية الالتباس وقد وجهت آثار اللغة الجعزية فى هذا الدور. والخطوط فى هذين الدورين كانت تكتب من اليمين إلى الشمال على حسب الخطوط اليمنية القديمة

جـ - أما الدور الثالث فهو دور الخصائص الواضحة والابتكار المشكور فى اللغة ورسومها. وذلك أن بعض اللغات عند ماتتغير الدلالة منها بتغير الحركات فانها إما أن تعمد الى وضع حركات كاملة على الحروف كاللغات السامية الآن ، وإما أن تضع حروفا من بنية الكلمة تدل بها على الحركات المختلفة وذلك كاللغات والخطوط الآرية جميعها

ولكن الحبش عند ماتحضرت لغتهم وتعقدت مناصى التعبير منها عمدوا الى الجمع بين طريقتي الساميين والآريين فوضعوا حروفا صوتية لتدل بها على الحركات المختلفة ولكنها لم تدخلها فى صلب الكلمة وبنائها كما فعل الآريون

ومن غريب الأمر أنك تجد الخط فى هذا الدور الراقى قد غير اتجاهه الطبيعي كباقى الخطوط السامية بل سار من الشمال الى اليمين على طريقة الآريين

وهذا الدور هو الذى خلط الأمر على بعض المؤرخين فزعموا أن خطوط الحبشان مأخوذة من الخط الآرى والحركات اليونانية القديمة .

وتعد (أقسوم) هي الحاضرة المدنية لدولة الجعزيين ولغتهم آلافا من السنين وفى أطلالها تجد الكنوز الدفينة من آثار اللغة والأدب والدين لها فى نفوس الناس هناك من القداسة مايجعلها تحس أعمق الاحساس انها مدفوعة لذلك بدافع من الحنين إلى مقررفات هؤلاء الأجداد. وهذا ماحال بين المكتشفين أن تصل أيديهم إلى مخلفاتهم المقدسة الى الآن

وبعد أن ظلت لتلك الأسرة الحاكمة وللغتها القداسة الدينيه قرونا متطاولة تألفت جماعة من الثائرين ووثبوا علي العرش وأقصوا الأسرة الحاكمة ونشروا لغتهم بين الجهات والقبائل وعرفت لغتهم باسم اللغة الامحارية وزعموا أنهم من نسل سليمان بن داود وأمهم ملكة سبأ. وبتغلب الامحارية علي الجعزية أخذت الأولى تستفيض على ألسنة الناس فى التخاطب والمعاملات العامة وانزوت الثانية بين المؤلفين وعلماء الدين ورجال الدولة الرسميين فى البيع والكنائس

وبتغلب الامحارية علي الجعزية خوى نجم الحضارة وصوحت أركان المدنية وأطبق الجهل بجيوشه على العقول وحدثت في الافكار رجة ذهنية أشبه ماتكون عند مااستولى برابرة الألمان على الدولة الرومانية الغربيه، وعند مااستولى التتر والمغول علي بنى العباس

وما زالت الامحارية تتغلب علي باقى القبائل والشعوب الحامية حتى أصبح لها السلطان على كل هذه البلاد وتدخلت شيئا فشيئا

فى الدواوين والمكاتبات حتى جاءت البعثات المسيحية فى السنوات الأخيرة فترجمت الكتب الدينية المقدسة وآثار العلم القديم الي اللغة الامحارية ليستطيع أفراد الشعب أن يقفوا علي تفاسير الدين والعلوم بأنفسهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها ولقد كان فى هذا القضاء المبرم على ما كان للغة الجعزية من آمال فى الحياة والوجود .

ولا تزال اللغة الامحارية هى اللغة الرسمية الى اليوم وبها تصدر الصحف والمجلات والكتب الدينية وأنواع الآداب واللغة .

ومما تقدم نري أن الامحارية خليط من الجعزية السامية والحامية البربرية وألفاظ غيرهما من اللغات الأخرى التى دخلتها كالعبرية والسريانية واليونانية . ولتغلب مفردات اللغات الأخيرة لانري أثرا للحروف الحلقية التي هى من خصائص اللغات الساميه

وعلى أنقاض المدنية الجعزية اليوم تقوم قبيلتان كبيرتان تعتنقان الديانة الاسلامية وتتحادثان بلهجة تقرب فى أوضاعها من اللهجة الجعزية القديمة يشوبها كثير من المفردات العربية التي دخلت إليهم من الدين الاسلامي والقرآن الكريم والحديث الشريف لاقامة شعائر الدين ورسومه هناك باللغة العربية.

وهاتان المقاطعتان هما اللتان وقفتا فى وجه الامحاربة ولم تستطع ان تتغلب عليهما إلى الآن وتعرفان باللغة التجرينية والتجرانية وهناك مدينة (هرر) يسكنها العرب وتجد في لغتها أحرف الحلق واضحة

الباب الثامن

اللغة العربية

تستفيض اللغة العربية الآن استفاضة لم يشهد لها التاريخ مثلا فى أدوارها التى مرت عليها إذ يتحدث بها الآن أكثر من مائتى مليون ينتشرون فى بقاع المعمورة التى لها صلة بالعربية أو الديانة الاسلامية

وهذه اللغة التى يتحدث بها هذا المجموع من الناس إنما ترجع فى تكونها ونشأتها إلى اللغة المضرية التي تهذبت وانتقى منها ماوافق الحياة والنمو الطبيعى للغة وآدابها

وهذه اللغة جمعت من لغات ولهجات شتي كانت منتشرة فى وسط الجزيرة وجنوبيها وشماليها وخاصة من القبائل العدنانية التى كانت تقطن الحجاز، ونجدا، وبادية الجزيرة كقبائل، تميم، وربيعة، ومضر وقيس، وهذيل . . . على اختلاف فى درجة قربها أو بعدها عن اللهجات المضرية الخالصة التي كان لها شأن كبير فى القرون المتأخرة قبيل الهجرة كعليا هوازن وسفلي تميم وغيرهما من فصحاء العرب وبلغاء نجد.

ولو أن الرواة تركوا لنا آثار تدلنا على مبلغ الامتزاج بين هذه اللهجات كما فعلوا فى العصر الاسلامى حيث دونوا كل ما يتعلق بالألفاظ وتاريخها واشتقاقها والدخيل فيها ... لاستطعنا أن ندرك مدى هذا الامتزاج وأى لسان من هذه الألسن كانت له الحظوة الكبري فى هذا التراث

. . ولكن الجاهليين ما كانوا أهل كتاب وتدوين لان شغف العيش وتجهم الصحراء لم يدعا لهم متسعا من الوقت يركنون فيه إلى رفاهيه العقل وتفنن الحضارة . ولو أنهم فعلوا كما فعل اليونان القدماء عندما ألفوا إلياذة هومير لأدركنا كما أدرك اليونان مبلغ التأثر والتدرج فى عبارات اللغة وألفاظها بالمقارنة والموازنة ... وكل ما أثر عنهم فى ذلك إنما هو بعض نقوش وجدوها في منطقة حوران بالشام وهى لامرىء القيس حوالي القرن الخامس الميلادى وهى لهجة عربية ترتضخ لكنة آرامية كانت شائعة فى هذه البلاد

ولغة مضر هذه أو لهجة أهل مكة التى وصلت إلينا إنما هي تهذيب عام لعبارات مختلفة من لغات متباينة وذلك أن أهل مكة عامة وقريشا خاصة كانوا أهل تجارة وسفر فكانوا يذهبون إلى الشام والعراق ومصر واليمن والعجم والهند والرومان ... وكان طبيعيا أن يحصل الامتزاج والتجاوب بألفاظ متداولة يتفهمها الجميع وتسير فى أعطاف كل لغة فاكتسبت اللغة العربية من ذلك شيئا كثيراً فضلا عما كان لأهلها من الحفاوة فى بلادهم حيث كانت قبائل العرب تتوافد على البيت الحرام لمشاهدة المجتمعات العربية والأندية الأدبية فى أسواقها العامة فكان كل شاعر أو خطيب يحرص أن تكون لغته وألفاظه مما تستسيغها الأوتار القرشية حتي يكون ذكره أشيع وفضله أنبه فأصبحت اللغة المضرية على بعدها من

اللهجة السامية الأولي تحوى هذه الرطانات التي أخذتها من اللغات المختلفة فرواها عنها الاسلام وعلماؤه وبها نزل القرآن فحافظ عليها المسلمون فى بقاع الارض

وللمصريين طريقة خاصة فى تعريب الألفاظ الدخيلة وذلك أنهم يصبغونها بالصبغة العربية ويجرون عليها قوانين لغتهم وقواعد تصريفها حتي لايشك من يأتي بعدهم ممن لم يطلع على تاريخ اللغة أن هذه الالفاظ عربية محضه ، ولهذا ضل كثير من العلماء فى البحث عن عناصر اللغة المصرية وارجاع كل عنصر منها إلى جهته التي نبع منها فلم يرجعوا من هذا البحث بطائل

وقد اهتدوا فى السنوات الاخيرة إلى وضع حدود تقريبية توضح لنا معظم الالفاظ الدخيلة بعد مادرسوا تاريخ اللغة درسا مستفيضا من احوال العرب الاجتماعية والعلمية والدينية ... وإليك نتيجة أبحاثهم

كل لفظة لم يكن مدلولها من اختراع العرب ومألوفهم يرجح أن تكون أجنبية فالالفاظ الدينية مثل (المنبر والحوارى والبرهان والنفاق...) معظمها من العبريه والحبشية

والألفاظ التى تدل علي الروائح والأطياب مثل « الكافور » « والمسك» و «القرنفل» وأسماء العقاقير والاحجار الكريمة التي كانت تمر ببلاد العرب للتجارة فيها معظم هذه الألفاظ هندى أو فارسى

أما الدخيل من اللغة الفارسية فحدث عنه ولاحرج حتي إن معظم علماء اللغة إذا أشكل عليهم لفظ عدوه أعجميا فارسيا وذلك ظاهر وطبيعي من الامتزاج التام بين الجنسين العربي والفارسى فى عصور تدوين اللغة

وما دخل اللغة من الألفاظ التى تدل على الآلات العملية مثل القسطاس والبطاقة والقبان والاسطرلاب والقنطار ... فمعظم هذا يوناني أو روماني

لهذا قال بعض العلماء (كانت الأمة العربية لأول عهدها منحطة ... متأخرة فى فنون العلم وضروب العرفان ... فاذا أرادوا الزائد عليه من شأن علمي أو زراعي أو صناعي ، أو كان من أدوات الترف والزينة ولم يجدوا له اسما فى لغتهم ولم يعرفوه فيما كانوا عليه من نوع مدنيتهم تناولوا اسمه من لغات الامم المطيفة بهم العريقة فى المدنية)

أما أهم اللغات التي تكونت منها لغة مضر أو لسان قريش من لهجات العرب فيرجع إلى أصلين هامين : لغة قدماء اليمن ولغة الحجاز وقد كانا يختلفان قديما كل الاختلاف في مفرداتهما وتراكيبهما وذوق تصاريفهما ...

والعرب تسمي اللهجات اليمانية (المسند) وذلك لكثرة الآثار التي كتبها اليمانيون بالخط المسند الذي كان منتشرا إذ ذاك وأهم

لهجات اليمن
ا — المسند لغة حمير في اليمن ، ب — الزبور لغة حضرموت
جـ — الرشق لغة عدن د — الحويل لغة مهرة والشحر هـ — الزقزقة
لغة الاشعريين

لغة اليمن و لغة عدنان

١ — الاسم فى لغة حمير إما أن يكون متمكنا أمكن ، أو متمكنا غير أمكن وعلامة الاول عندهم « م » بدل التنوين فى اللغة العدنانية و« ملك » يكتب عندهم «م‌ل‌ك‌م» فالميم الاخيرة فى محل التنوين عند العرب ، وتحذف للاضافة ، فاذا أريد اضافة « سبأ » الى «ملك» كتب هكذا «م‌ل‌ك‌س‌ب‌أ»

٢ — العلمية ووزن الفعل تمنعان الاسم من الصرف فى لغة حمير كما هى فى لغه عدنان فمثلا « كلبة » علم على قبيلة تمنع من الصرف أى من كتابة الميم فى آخرها فتكتب هكذا « ك‌ل‌ب‌ة »

٣ — الجمع السالم في لغة حمير يكون بالميم (مثل العبرية) والمثنى يكون بالنون والياء . فجمع «ملك» : «م‌ل‌ك‌م» باضافة « م » إلى آخره كالاسم المصروف ، ومثناه يكتب هكذا : «م‌ل‌ك‌ن‌ى»

٤ — اسم الاشارة في لغة حمير «ذ» ويقرأ جوازا « ذا » أو « ذو » ولا يمكن أن يعرف أصله لأن الواو والالف والياء كثيرا ماتحذف من الكلمات الحميرية فى الكتابة وقد تلحق باسم الاشارة (ن) تقوية لها

٥ — والمؤنث في الاشارة (ذت)

٦ — التعريف ليس مأنوسا فى لغة حمير إلا فى أزمانهم المتأخرة ولذلك استعملوا (أم) بدل (أل) ومنه الحديث المشهور (ليس من أمبر امصيام فى امسفر)

٧ — الضمير المتصل فى الحميرى (هو) (فمالك) ملكهو، وضمير المثني (همى) مثل ملكهمي ، والجمع (همو) مثل ملكهمو هذا وقد انقرضت لغة حمير ولم تبق منها إلا لهجات (مهرةوالشحر)

وقد بادت هذه اللهجات وفنيت فى لغة الحجاز فى العصور الاسلامية الأولى وابتدأ ذلك الاضمحلال من توالي نكبات الامم على اليمن مثل الحبشان والفرس مما دعا الحجازيين الي الاستقلال فوجدت لغات مضر وربيعة (عدنان) تربة صالحة أزهرت فيها وأينعت وآتت أكلها حتي غضت من شأن كل لهجة أخرى فى جزيرة العرب

ومن هذا كان العرب يطلقون على لهجات الحجاز (اللسان المبين) وأهم فروعها .

ا — معظم قبائل مضر ولا سيما تميم فى شرقى نجد وشمالها

ب — غطفان (عبس وذبيان) وسليم فى نجد

ح — وأقواها جميعا لغة قريش فى مكة وماجاورها

وإذا نحن نظرنا إلى الاقاليم التى كان يسكنها العرب الجاهليون الذين من لغاتهم تكونت اللهجة العربية المضرية وجدنا أن للبيئة الطبيعية أثرا كبيرا فأهالى الجبال والصحراوات أصفى ذهنا وأنقى قريحة وأعظم لحيين لعرك الكلام الفصيح الجزل من أهل الحضر والمدن والسهول وذلك لتأثير البداوة فيهم بالنشاط والحركة وجودة الذهن وصفاء الحس

وعلى هذا الاساس يسهل علينا أن ندرك الحكمة فى أن الرواة من الصدر الاول قد أجمعوا علي أن أبلغ العرب هم أهل(السروات وهي ثلاثة جبال تشرف علي تهامة من أهل نجد) وقد تغنى الشعراء قديما بهذه البقاع لبهجة مناظرها وطيب هوائها وشميم عرارها وجل هؤلاء من ربيعة منبع الشعر القديم والفصاحة ، ومشرق شمس البلاغة العربية

علي حين نجد لأهل الحجاز رقة وغزلا ولينا فى أخلاقهم ودعة فى أقوالهم ماجعل لهم مركزا ممتازا فى الشعر الغزلى فى صدر الاسلام .

أما أشهر القبائل فصاحة وذكاء فهى ربيعة التي قرضت الشعر أولا واستفاض منها إلى باقى القبائل العربية ونحن نخص الشعر بالقول لأنه انجيل العرب ومعرض بيانهم وسجل فصاحتهم وديوان معارفهم

وذلك طبيعي في ربيعة لأنها أول القبائل استقلالا من نير اليمن، وعبوديتهم فهم أول من تنفس منهم أريج الحرية فأطلق ذلك من ألسنتهم وأفسح أمامهم القول في الفخر والحروب التي انغمسوا فيها بعد استقلالهم حسدا من عند أنفسهم حتى تأججت القرائح في هذه المعامع الدموية من أيامهم المشهورة

فولت ربيعة وجهها شطر نجد وأقامت في باديتها الضاحية وهوائها العليل حتى ضاقت عليها الارض بما رحبت لكثرة عشائرها وتعدد أفخاذها فهاجرت قبيلتا بكر وتغلب إلى بادية العراق وفيما بين النهرين وأقامتا هناك في عزة ومنعة وأشهر من ولد لها في اليمن قبل الاستقلال (المرقش الأكبر) أما انبه من نبغ فيها في هضبات نجد فهو المهلهل بن ربيعة وبعد أن انتقلت إلى العراق واختلفت عليها المناظر الطبيعة زادها ذلك نموا في خيالها وخصوبة في أذهانها وسعة في مداركها مما كان له أكبر الاثر في شعرائهم وخطبائهم الذين نبتوا في هذه البلاد وكلهم شاعر فحل وخطيب مصقع

هذا وأشهر الفصحاء الذين خلدت بهم ربيعة على الدهر طرفة ابن العبد والأعشى والحارث بن حلزة وغيرهم

أما مضر فقد انتقلت إليها البلاغة الشعرية على لسان قيس وهي قبيلة كانت تسكن أعالي الحجاز ونجد وأهم شعرائها وخطبائها النابغتان وزهير ولبيد وقد روى صاحب الأغاني أن (أفصح قيس

وأشعرهاهم الملقبون من بني عامر والمنسوبون إلى أمهاتهم من غطفان)

ثم سرت الفصاحة إلى تميم وهى قبيل كبير من مضر كان يسكن تهامة ثم نزح بعض بطونه قبيل الهجرة إلي بوادي العراق وكان شاعرها ولسانها أوس بن حجر شاعر مضر فى الجاهلية .

من هذه اللهجات الثلاث وغيرها تكونت اللغة المضرية التي نتحدث بها الآن بعد أن هذبتها قريش من شائبة الهنات التي كانت منتشرة في كثير من لغات القبائل .

خصائص اللغة العربية

ا — الاعراب : وهو تغير يحدث في أواخر الكلمات لاختلاف العوامل الداخلة عليها . والاعراب صورة قديمة من صور الحياة الأولي يعطي اللغة دقة فى التخاطب، وهو عنوان على مجد القوم ومبلغ حرصهم على لغتهم كما أنه عامل مهم من عوامل النمو والارتقاء بما يتفرع عنه من ألوان الصور المختلفة في التراكيب

واللغات الراقية الآن لايعني منها بالاعراب سوي العربية والحبشية والالمانية . واللغة العربية في ذلك أقومها سبيلا لتأصلها من قديم الزمان وسيرها على قواعد وقوانين ثابتة قلما تجاريها فى ذلك لغة أخرى

وبعض المؤرخين يرى ان الاعراب انما يكون حيث الجفاء وقوة العارضة وسذاجة الحياة وبساطتها وضربوا لذلك أمثلة

فالبابلية القديمة كانت معربة أيام البداوة والنشوء الاجتماعي ولما نزح أهلها وخلدوا إلى الرفاهية والنعيم انشأت عنها لهجات غير معربة كالسريانية والكلدانية — ويزعمون أن السنسكريتية (لغة قدماء الهنود) كانت معربة ولكن اللهجات المتفرعة عنها فقدت خصائص الاعراب وكذلك اليونانية القديمة كان فيها شيء من من الاعراب . وكذلك اللغة العربية اليوم غير معربة فى عامة مصر والشام والعراق وبلاد المغرب مع أنها جمعاء مشتقات من اللغة العربية الفصحى وهي معربة .

ب — دقة التعبير : ويتجلى ذلك فى كثرة الاسماء للشيء الواحد الذى يختلف باختلاف الاوقات والامكنة والحالات ، تلك الميزة هو دليل واضح على غني اللغة وثراء أهلها بأنواع التعابير المختلفة التى تحدد الاشياء تحديدا يقرب من المحسوس واللغة العربية أغني لغات العالم فى ذلك. خذ أي شيء يجول بخاطرك أو يقع تحت حسك وأنت تري له عشرات الاسماء بل مئاتها و كلها يؤدي معنى لايقوم به الآخر فى عرف اللغة ومتانة أوضاعها

ودونك الزمن فلكل ساعة لفظ خاص كالذرور والبزوغ والضحي والغزالة والهاجرة والزوال والعصر والاصيل والصبوب والحدور والغروب والعتمة والعشي ...

ودونك الشعر له فى كل مكان يحل به لفظ خاص كالفروة

والناصية والذؤابة والفرع والغديرة مما تجد أكثره فى كتب اللغة
وللقمر والمرأة والغلام ألفاظ بحسب أعمارهم وهكذا مما يحير الألباب ويدهش العقول

ناهيك بالالفاظ الداله على العواطف وخلجات القلوب مما لم تتعرض له إلا أغنى اللغات كالعربية فالحب وحده أكثر من خمسة عشر لفظا وللبغض والحسد والطمع والشره مثل ذلك

(ج) الايجاز والاعجاز

وهي صاحبه القدح المعلى فى ذلك لكثرة ألفاظها الموجزة التي تدل على المعاني الجمة ، ولأنها فى ثروة طائلة من التشبيهات والاستعارات وضرب الامثال والكنايات والتلميحات والألغاز والاشارات والتورية مما يدل على امتلاك ناصية البلاغة وبلوغ الشأو الأكبر فى الذكاء وقوة التعبير ومنه دلالة اللفظ الواحد على عدة معان مختلفة تتوارد على الذهن عند سماع اللفظ والقرينة وحدها هي التى تعين المعنى المقصود

فلديك للخال مايزيد على ٢٠ معني وللعين مايزيد على ٣٠ معني وللعجوز مثل ذلك وهكذا القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الفقه والآداب فنيها الامثلة لذلك ومن هنا كانت مراتب البلاغة تتفاوت على قدر ذلك

(د) المترادفات

واللغة العربية أوسع اللغات في مفرداتها ويظهر أن تلك الكثرة نشأت من ان بعض هذه الاسماء كانت صفات ثم دونت في العصور الاسلامية على أنها أسماء لا أوصاف أو أن هذه الاسماء كانت لقبائل مختلفة ولما جمعت اللغة لم يذكر لنا الرواة مصدر كل لفظة ولسان كل قبيلة فاختلط الامر على الباحثين ولم يهتدوا إلى أغراضهم ، وقد تقدم غير واحد من أئمة اللغة وأرادوا أن يحددوا هذه الاسماء من أوصافها فخطوا خطوات مباركة كابن جني فى خصائصه وأحمد فارس وغيرهما من علماء اللغة ...

(هـ) السجع

ان اللغة العربية أغنى اللغات فى مفرداتها ولهذا تستجيب للشاعر القوافي المتشابه فيملك عنانها ويحدوها إلى حيث يشاء من غير سآمة أو ضجر كالمطولات من القصائد والمقالات المختلفة التي تلتزم سجعات واحدة بحرف واحد وبعضهم قد غالى فى ذلك السبيل والتزم (لزوم ما لا يلزم) فى قصيدة أو قصائد عدة دلالة على تمكنه من اللغة وتملكه زمام التعبير فيها كالمعرى وغيره فجاءت عباراتهم غاية فى الجودة ومتانة التركيب وهذا مالا تجد له نظيرا فى لغة أخري . وقد راض شاعر ألمانى لغته فى ذلك فلم تستجب له إلا أسطرا معدودة ريثما نفذت كلمات اللغة فى ذلك المعني ، أما في العربية فان بحر المعانى ينفد قبل أن تنفد كلماتها ولو جئنا بمثله مددا !

الباب التاسع

اللغات الحامية

اللغات الحامية ثلاثة أقسام : (ا) لسان البربر (ب) لسان قدماء مصر (ج) لسان الكوشيين

(ا) البربر : مسكنهم شمالي افريقية وواحة سيوة . ونجد فى لغتهم شيئا من مفردات اللغة العربية ولاسيما ما يتعلق منها بالبناء لأنهم أخذوا ذلك عن العرب. والعرب قديما ترميهم بالجفاء والانحطاط هذا وقد ترجم القرآن إلي لغتهم البربرية فى القرن الثانى الهجرى ، وأخرجت الكتب الفقهية وكتب الحديث إلى البربريه أيام دولة (الموحدين) ولكن هذه الترجمات أصبحت رطانات لا تتفق وجلال الكتب الدينية مما دعا كثيرا من أهل الغيرة على الدين أن يبيدوا هذه الكتب ويحتموا دراسة الدين من الكتب العربية باللسان العربي المبين ولا تزال هذه السنة متبعة إلي وقتنا هذا

(ب) قدماء مصر : كان يسكن وادي النيل قوم من الحاميين لا حضارة لهم ولا مدنية قبل أن يفتحه الساميون . ولما كانوا أرقى مدنية وأوفر حظا من القوة غزوهم فى عقائدهم ولغتهم وعوائدهم كما غزوهم فى بلادهم وحرياتهم فنشأ عن ذلك لسان هو إلى السامي « كالعربى والعبري » أقرب منه إلى الحامي « كالبربر وسكان

سيوة ، » وظل هذا مستعملا إلى حوالى القرن الاول للمسيح وآثار هذا العهد كلها معروفة باللغة « الهيروغليفية »

وبعد ذلك نشأت لهجة تسمى القبطية وهى معربة عن لفظ « اجبتس » اليوناني الذي كان يراد به سكان وادي النيل.

هذا وقد وضعت كتب جليلة بهذا اللسان الجليل ومعظمها من كتب النصارى كالتوراة والانجيل ... وهى منقولة من اليونانية

(ج) السكوشيون : هى لهجة حامية يتكلم بها القاطنون فى الشمال الشرقي لأفريقيا وهم : « بجة » فى جنوب النوبة «وسوهو» جنوبي مصوع ، ثم (الآغو) وهم الحبشان القدماء والصومال . . . وهم لا يميلون إلي التأدب والعلوم وإذا ما أرادوا كتابة حرروها باللغة العربية كأهل النوبة

(اهم المراجع التى استقى منها هذا الكتاب)

فيما يلى بعض المراجع التى اطلعنا عليها واعتمدنا فى تأليف هذا الكتاب نذكرها لمن أراد أن يرجع اليها: —

١ — محاضرات الدكتور العنانى بدار العلوم
٢ — محاضرات السنيور جويدى بالجامعة المصرية
٣ — تاريخ اللغات السامية للدكتور ولفنسن
٤ — تاريخ اللغة العربية وآدابها لجرجي زيدان
٥ — تاريخ الاسرائيليين لمكاريوس بك
٦ — تاريخ المذاهب الفلسفية للدكتور العنانى
٧ — فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين
٨ — العلم والدين لاسماعيل مظهر بك
٩ — الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين
١٠ — مجلات (الكلية ، والهلال ، والمعرفة)
١١ — الكتاب المقدس
١٢ — عصر المأمون لرفاعى بك
١٣ — فلاسفة الاسلام للاستاذ لطفى جمعه
١٤ — فقه اللغة للاستاذ الأسكندرى
١٥ — الكنز لمحمد بك بدر